الفصل الثاني

السلطة والتدبير السياسي
للمدينة المغربية
(١- ٥٥هـ/ ٧-١١م)

obeikandl.com

obeikandl.com

تعد المدينة فضاء مناسبا لنمو السلطة السياسية وتطورها، ثم توسعها في شتى الإتجاهات مرتكزة في ذلك على أسس، ومعتمدة آليات لبسط نفوذها والتحكم في المجال الذي تهيمن عليه، عبر مبررات شرعية واستراتيجيات معينة. لكن مع تعدد السلط السياسية المختلفة البنية، والمتباينة الوجهات السياسية والمذهبية، والمتعارضة المصالح الاقتصادية ... يحدث ذلك الصراع الذي غالبا ما يؤدي إلى نتائج قاسية على المدينة أو المدن التي تشكل هدفا ومسرحا له. ما هي إذن مرتكزات وآليات تحكم وبسط نفوذ السلطة المغربية على المدينة ؟ وما هي انعكاسات الصراع السياسي عليها ؟

obeikandl.com

المبحث الأول : السلطة ومرتكزات التدبير السياسي

هناك عدة مؤشرات تحدد طبيعة السلطة وطبيعة تدبيرها وتحكمها في المدينة، وهي ترتبط بنوعية الظروف وسياقاتها الداخلية والخارجية، وبمدى قوة مركزاتها وتطور آلياتها. فإخضاع السلطة المغربية للمدينة في الغالب الأعم بصمه نهج سياسة "الشوكة والغلبة"، وذلك لكي تقضي على خصومها ومنافسيها، وتضمن وجودها واستمرارها ... معتمدة على قوتها العصبية وأسسها الشرعية والدينية، ثم ما يتيحه المجال من موارد مادية.

هذا ما سنحاول معالجته عبر النقطتين التاليتين :

- **أولا: المدينة وطبيعة السلطة**
- **ثانيا : المدينة ومرتكزات السلطة**

obeikandl.com

أولا : المدينة وطبيعة السلطة

*****

تميزت السلطة المغربية خلال الفترة المدروسة بتراوحها بين الإستقلال والتبعية الخارجية، وبضيق مجال تداولها، وبتأثرها بنظام القبيلة التقليدي، إذ أنها في حد ذاتها "ظاهرة بدوية قبلية"، فمن المعلوم أنها انبثقت في وسط قبلي تملكه الإحساس بالإنتماء العرقي المشترك (العصبية)، كما تتميز هذه السلطة بانتقالها عبر نظام وراثي يكاد لا يأخذ بعين الإعتبار القدرات القيادية والتدبيرية والشخصية التي يجب توفرها في رجالات الحكم، وتستمد أيضا قوتها من الصفات المقدسة التي يتحلى بها الملك، والتي تسعفه في الإنفراد والإستبداد بالأمور الدنيوية والأخروية، فسلطته لا حدود لها، وأوامره الإجبارية لا راد لها !

١- **بين الإستقلال والتبعية** : خلال المرحلة التاريخية الممتدة ما بين ق ١-٥ هـ/٧-١١م، تأرجحت علاقة مختلف السلطات المغربية بالخلافتين الأموية والعباسية بين الإستقلال والتبعية، وذلك بحسب الظروف السياسية والمذهبية والجغرافية والزمنية ...

إبان فترة الفتح الإسلامي كانت هناك تبعية لسلطة الأمويين بالمشرق، باعتبار أن المغرب أصلا فتح باسمهم وبتوجيههم، وقد كان الولاة يدبرون شؤونهم السياسية والإدارية بحرية كبيرة، وتوفروا على صلاحيات شبه مطلقة في اتخاذ القرارات.

سلك بنو مدرار الصفرية بدورهم سياسة المجاملة والمهادنة مع الخلافة المشرقية، رغم البعد الجغرافي النسبي والاختلاف المذهبي، فقد صرحوا بالدعوة للخلفاء العباسيين ببغداد، "ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا، لا يؤثر ولا يتأثر، فالهدف منه هو كسب نوع من المشروعية، قد تساعد على الثبات والاستقرار".[١]

أما الأدارسة فقد اتخذوا لقب الإمام باعتبارهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي أطلقته الشيعة على "المعصومين" من آل البيت، وأطلقته بعض فرقها على زعماء علويين كالزيديين في اليمن. ولهذا فإن سلطة الأدارسة انفردت بطبيعة علاقتها العدائية عموما، فقد قامت في المغرب على حساب نفوذ الخلافة العباسية ونفوذ الخوارج الصفرية أيضا، أضف إلى ذلك العداء التقليدي بينهم وبين أمويي الأندلس.[٢]

نعلم بأن العلويين قد تحالفوا مع العباسيين من أجل الإطاحة بالأمويين، وتمت الدعوة لمحمد النفس الزكية العلوي، لكن لما نجحت الثورة انقلب العباسيون على العلويين ونقضوا العهد، فقام هؤلاء بانتفاضات وثورات ضد السلطة العباسية، لعل آخرها ما يسمى بمعركة فخ سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، والتي نجا من بين من نجا من عواقبها إدريس بن عبد الله (إدريس الأول) ليؤسس ملكه بالمغرب. وقد حاول هارون الرشيد القضاء على الدولة الإدريسية الناشئة، خاصة بعد تزايد خطر الأدارسة بعد ضم مدينة تلمسان، ولكن حال البعد الجغرافي دون إرسال جيش

---

١ - بوزياني الدراجي، **دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس**، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط.١، ٢٠٠٠، ص.٢٧.

٢ - سعدون عباس نصر الله، **دولة الأدارسة في المغرب : العصر الذهبي (١٧٢ – ٣٦٣ هـ/ ٧٨٨–٨٣٥م)**، دار النهضة العربية، بيروت، ط.١، ١٩٨٧، ص.١٦٢.

جرار يسحق هؤلاء المعارضين، ولهذا لجأ إلى طريق أسهل وأنجع، ألا وهو إرسال أحد أوفيائه الملقب "بالشماخ" الذي استطاع بدهائه اغتيال الإمام إدريس الأول بالسم،[1] بعد أن صار من مقربيه الذين يثق بهم. وهكذا استمرت العلاقات العدائية إلى سقوط الأدارسة، ولم تشهد أي نوع من التقارب، بل امتدت إلى الأغالبة الذي كانوا يدينون بالولاء السياسي للعباسيين.

إذا كان الأدارسة قد مثلوا استثناء بطبيعتهم العدائية اتجاه معاصريهم، والتي غذتها الأحداث والظروف التاريخية المحيطة بهم، فإن الزناتيين منذ بداية سطوع نجمهم أعلنوا ولاءهم للأمويين بالأندلس، يقول إبن عذاري :" ... وقام ببلاد المغرب زيري بن عطية الخزري المغراوي، وملك فاس وغيرها، وصار أمير زناتة كلها في ذلك الوقت، وكان يدعو لبني أمية في دولة هشام المؤيد، إذ كان المقيم لها إبن أبي عامر حاجبه، وهو يحارب أعداءه وأضداده صنهاجة أمراء إفريقية ..."،[2] إلا أن هذه التبعية والعلاقة الودية المتبادلة لم تستمر طويلا، إذ سرعان ما انقلبت رأسا على عقب، وتمثل ذلك من جانب زيري في إلغاء ذكر المنصور من الخطب واقتصاره على ذكر هشام المؤيد، ولذلك دلالته القوية على ولائه الشديد للأمويين وثباته على موقفه، وطعنه لسلب إبن أبي عامر الملك من هشام، ثم التعريض بالمنصور وطرد عماله من المغرب وإلجائهم إلى سبتة.[3] وبالمقابل فقد تريث هذا الأخير إلى أن

---

(١) - ينظر البكري، **المسالك**، ج.II، ص.٣٠٦ / **القرطاس**، ص.٢٧.

(٢) - **البيان المغرب**، ج.I، ص.٢٥٢.

(٣) - علي لغزيوي، "ثورة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر ونتائجها"، ضمن **المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر : الوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة**، منشورات كلية الآداب- وجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٢، ص. ٢٤٤.

استفحل أمر إبن عطية، فنفذ صبره وأقدم على عدة إجراءات منها أنه أقطع عنه مرتب الوزارة السنوي، ومحا اسمه من ديوانه، وتبرأ منه واعتبره خارجا عن الأمويين، وختم ذلك بإجراء أكثر خطورة ألا وهو توجيه حملة عسكرية لتأديبه،[١] ومن خلال المصادر التاريخية يبدو أن هناك عاملان رئيسان لنقمة زيري على المنصور : أولهما استقلاله ما وصله به المنصور، ثم طموحه الكبير في تأسيس كيان سياسي مستقل وخاص به.[٢] لكن المياه ستعود إلى مجاريها من جديد، وسيتم تجديد الطاعة والرضى بالتبعية للأندلس.[٣]

من خلال قصة اتصال يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم الحلف الصنهاجي بأبي عمران الفاسي، يظهر أن الحركة المرابطية ظهرت كامتداد لرد الفعل السني ضد التشيع،[٤] ولهذا وقفوا بجانب العباسيين، غير أن تبعيتهم لهم كانت صورية فقط، وذلك لعدة اعتبارات من أبرزها التوافق المذهبي المتمثل في المذهب السني، ثم العامل السياسي المتمثل في الخوف من التهديد الفاطمي. إذن فرغم هذا "الاتصال الرمزي، فإن الدولة المرابطية لم تسر أبدا في خط التبعية أثناء مدة حكمها"،[٥] إذ كانت سياسة المرابطين تهدف إلى المحافظة على وحدة دار الإسلام.[٦]

---

[١] – علي لغزيوي، "ثورة زيري بن عطية"، ص.٢٤٤.

[٢] – بشأن مناقشة الأدبيات التاريخية لأسباب ومبررات قيام زيري ضد المنصور، وكذلك النتائج الذي خلفها، ينظر لغزيوي، "ثورة زيري بن عطية على المنصور"، ص.٢٤٤-٢٥٧.

[٣] – علي لغزيوي، "ثورة زيري بن عطية"، ص.٢٤٧.

[٤] – العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج.II، ص.١١٢-١١٤.

[٥] – محمد القبلي، "ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية بالمغرب الكبير"، ضمن **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال، ط. ١، ١٩٨٧، ص.١٣.

[٦] – حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج.I، ص.٢١٧.

تمثلت علاقة التبعية والود بين المرابطين والعباسيين في التقليد الخليفي والدعاء على المنابر ونقش أسماء الخلفاء على السكة ... و"مع أنه لم تصلنا نصوص التقاليد التي بعثها الخلفاء العباسيون إلى الأمراء والمرابطين في شكل ولاء إسمي ... على الأقل منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمر، الذي نقش على دينار ضرب في عهده سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م بسجلماسة إسم الخليفة العباسي أبي جعفر عبد الله القائم بالله ... وليس إلى الشك سبيل في أن أبا بكر لم ينقش ذلك الإسم على عملته، إلا بعد أن راسل الخليفة العباسي وتلقى منه إجابة بقبول طاعته وتقليدا بولايته".[1]

وقد سار الأمراء المرابطون على نفس المنوال، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن يوسف بن تاشفين أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب تقليدا بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها،[2] وهذا ما أملى عليهم عدم اتخاذ ألقاب كتلك التي تلقب بها خلفاء بني العباس، يقول صاحب "الحلل" : "... ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالأمير، فلما ضخمت مملكته، واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياخ قبيلته، وأعيان دولته، وقالوا له أنت خليفة الله في هذا المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم حاش الله أن نتسمى بهذا الإسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين، مكة والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم، فقالوا له : لا بد من اسم تمتاز به، وبعدما أجاب إلى "أمير

---

[1] - مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع" والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، مطابع الشويخ، تطوان، ط.١، ١٩٩٩، ص١٧-١٨.

[2] - ينظر مثلا **القرطاس**، ص.١٤٩ / **العبر**، ج. VI، ص.٨٧.

أجاب إلى "أمير المسلمين وناصر الدين"، خطب له بذلك على المنابر وخوطب به من العدوتين ...".[١]

هكذا تحرك المرابطون في إطار رؤيتهم السياسية السنية، واكتفى زعماؤهم بلقب "الأمير"، إلا أن يوسف بن تاشفين- كما ورد سابقا- اتخذ لقب "أمير المسلمين" و"ناصر الدين". لكن المؤرخين[٢] اختلفوا حول الكيفية التي اتخذ بها يوسف بن تاشفين هذا اللقب، ثم حول زمن وأسباب ذلك الحدث التاريخي.

اختلف المؤرخون حسب توجهاتهم الدينية والسياسية وتباين وتباعد مواقعهم الجغرافية، حيث نجد أن المصادر الشرقية تعتبر يوسف بن تاشفين بطلا من أبطال الإسلام الذين قادوا عملية الجهاد في الغرب الإسلامي باسم الخلافة العباسية، ولهذا "كان تلقيبه بأمير المسلمين هبة من الخلفاء العباسيين وجزاء له على جهاده للكفار وحربه ضد البدع والخوارج، وضمانة وتعزيزا لمذهب السنة ووحدة الأمة الإسلامية تحت قيادة العباسيين".[٣]

في حين تجعل المصادر الأندلسية من ابن تاشفين منقذا للإسلام ومخلصا للمسلمين من هجمات الكفرة المسيحيين بشبه جزيرة الأندلس، "وأن شأن يوسف

---

[١] - **الحلل الموشية**، ص.٢٩.

[٢] - ينظر مناقشة هذا الاختلاف عند : حمدي عبد المنعم حسين، **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص.٢٥٣-٢٥٥/ رشيد السلامي، "ملاحظات حول اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين"، ضمن ندوة **يوسف بن تاشفين**، ص.٢٧١-٣٢٩ / بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع"**..، ص.٢٠-٢٣.

[٣] - السلامي، "ملاحظات حول اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين"، ص.٢٧٢.

ما كان ليصل إلى قمة المجد والشهرة لولا مبادرة الأندلسيين إلى دعوته للدخول إلى الأندلس وإضفاء لقب الخلافة عليه من طرف ملوكها وفقهائها وعلمائها".[١]

أما المصادر المغربية فقد اعتبرت زعيم المرابطين فاتحا وموحدا للمغرب، وأن اتخاذ لقب "أمير المسلمين" هو بمثابة انتقال من مرحلة "التفرق والفوضى إلى الوحدة والقوة، ورمزا لشخصيته المتميزة وهويته العقائدية، وما انتماؤه للعباسيين إلا أكبر دليل على ارتباط يوسف بأصول الإسلام السني وينابيعه وحفاظا منه على وحدة وقوة الأمة الإسلامية".[٢]

obeikandl.com

١ - السلامي، "ملاحظات..."، ص.٢٧٢.

٢ - السلامي، "ملاحظات..."، ص.٢٧٣.

جدول • بالألقاب التي اقترنت باسم يوسف بن تاشفين

خلال الفترة الممتدة ما بين ٤٦٣ هـ و ٤٦٥ هـ

المصدر	لقب السلطان	المصدر	لقب الملك	المصدر	لقب الأمير
التبيان، ١٦١	السلطان	وفيات الأعيان ج.٧ : ١١٣	ملك المغرب	الحلة السيراء، ج.٢ : ٩٨، مرآة الزمان، ج.٢ : ٤٤٦.	أمير المغرب
كتاب الجغرافيا لابن سعيد، ١٢٥	سلطان الملثمين	وفيات الأعيان ج.٧ : ١١٢ شذرات الذهب، ج ٣ : ٤١٢	ملك الملثمين	الاستبصار لمجهول، ٢١٩	أمير أغمات
النجوم الزاهرة، ج.٥ : ١٩٥	سلطان المسلمين	إعمال الأعمال، ق ٢ : ٢٤٣. بدائع السلك، ج.٢ : ٧٤٠	ملك لمتونة	نزهة المشتاق للإدريسي، ٤٤	أمير مراكش
-	-	رايات المبرزين لابن سعيد، ١٨٨	ملك المرابطين	أعمال الأعمال، ق٢ : ١٦٠، جنى زهرة الآس، ٤٢	أمير لمتونة
-	-	-	-	ترتيب المدارك : ج.٨ : ١٦٨	أمير الملثمين
-	-	-	-	سير أعلام النبلاء، ج.١٩ : ٢٥٢.	أمير المرابطين

obeikandl.com

• أخذا عن : رشيد السلامي، ملاحظات حول اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين، ص.٢٩٢.

obeikandl.com

توضح بعض الدراسات بأن المرابطين نقشوا أسماء الخلفاء العباسيين على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ /١٠٥٨م،[١] أي منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمر، واستمر ذلك خلال حكم باقي الأمراء المرابطين. فقد نقل المقريزي في كتابه "شذور العقود في ذكر النقود" أن النقوش التي كانت على النقود في عهد يوسف بن تاشفين كانت كما يلي : " في دينار**ه لا إله إلا الله محمد رسول الله.** وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. وكتب في الدائرة **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.** وكتب في الصفحة الأولى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة".[٢]

رغم انعدام ما يثبت دعاء المرابطين لخلفاء بني العباس في خطب الجمعة، يمكن القول بحدوث ذلك، إذ أن هؤلاء الخلفاء كانوا يطالبون بالدعوة لهم على منابر الجمعة[٣]، فقد جاء في نص التقليد الذي بعثه الخليفة عبد الله المستظهر بالله إلى الأمير يوسف بن تاشفين : "... وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على المنابر، تكن الظافر بالأعداء والظاهر ..."[٤]، وقد أشار بنسباع[٥] إلى أن هذا النص ورد عند حسين مؤنس في وثائق جديدة كما يلي : "وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على ذوايب المنابر، تكن الظافر بالأعداء والظاهر".

---

[١] - بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع"**،ص.١٩.

[٢] - أحمد حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**،ص.٣٣٥.

[٣] - بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع"**،ص.١٩.

[٤] - **الحلل الموشية**، ص.٨٨.

[٥] - بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع"**،هامش ص.١٩.

من خلال ما سبق، يبدو أن جميع السلطات المغربية قد حاولت توحيد نفسها "عن طريق الإنفصال، غير أن هذا الإنفصال قد وضع نفسه في إطار ديني يعكس الرغبة في الانتماء إلى دار الإسلام وإلى الأمة الإسلامية، وبالتالي إلى نفس الأسرة الثقافية التي كان يعمل على الاستقلال عن رؤسائها في تسيير شؤونه الخاصة من الناحية العملية".[١]

٢- **ضيق مجال تداول السلطة** : إن قيام السلطة على أساس قبلي يجعلها محصورة في أفراد معينين، أي أنها تصبح ذات طبيعة منغلقة واحتكارية، فالقبيلة التي تستطيع بسط نفوذها على المجال والسيطرة على الحكم، تبذل كل ما في وسعها لاستمرار التحكم عبر وسائل معنوية رمزية وأخرى مادية، وكذلك القضاء على القوى المنافسة والقبائل التي يفترض أن تشكل خطرا ولو في المستقبل، وإن تم توظيف الموارد البشرية لهذه القبائل ففي مجالات ووظائف محدودة لا تؤثر بالمطلق في مستوى تركيز وتمركز السلطة عند الأسرة الحاكمة، "لذا فعادة ما ركزت الإخباريات السياسية المغربية على بعض الأحداث التي رافقت تنحية إحدى القبائل عن العرش من طرف القبيلة الحاكمة الجديدة. حيث غالبا ما كانت تأخذ هذه الأحداث شكلا دمويا يتم من خلاله تصفية ما تبقى من أفراد العائلة الحاكمة".[٢]

يزداد انغلاق السلطة حينما تتجسد بالأساس في شخص الأمير، الذي يشكل الرئيس المباشر لكل شريحة، ويجسد مختلف أبعاد السلطة الدينية والإدارية والعسكرية والاجتماعية (إمام، شريف، أمير الجيش، منظم إداري، سيد يأمر

---

[١] - محمد القبلي، "ملاحظات حول التجارب الوحدوية.."، ص.١٤.

[٢] - محمد شقير، **تطور الدولة في ا لمغرب : إشكالية التكون والتمركز والهيمنة (من القرن الثالث ق.م. إلى القرن العشرين)**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٢، ص.٦٧.

الخدم...). ويجب على الكل إعلان الطاعة والولاء. لكن هذا لا يمنع من وجود مراكز أخرى للنفوذ، قسمها ذ.محمد شقير[1] إلى ثلاث دوائر :

- الدائرة القبلية : وتتكون من مختلف أفراد العائلة التي ينتمي إليها السلطان وامتداداتها السلالية، بالإضافة إلى علاقات المصاهرة.

- الدائرة البلاطية : وتتكون من الأشخاص والفئات التي تحيط بالسلطان إما لخدمته أو الحفاظ على أمنه أو تنظيم استقبالاته.

- الدائرة المخزنية : وتتكون من الأشخاص الذين يسهرون على تنفيذ أوامر السلطان وتطبيق قراراته سواء كانوا كتابا أو وزراء أو قوادا أو علماء أو ولاة أو قضاة.

هذه الدوائر الرئيسة الثلاث تشتمل هي أيضا على دوائر نفوذ فرعية تزداد قوتها وتأثيرها حسب نوع العلاقات التي تجمعها بشخص السلطان، مثل أمه أو زوجته أو ... نموذج ذلك في تاريخ المغرب والمدينة المغربية كنزة جدة محمد بن إدريس، وزينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين ... والأمر نفسه ينطبق على الدائرتين البلاطية والمخزنية. ولهذا فعادة ما تتمحور مراكز النفوذ الرئيسية أو الفرعية حول من يجسد هذه المراكز، وحول الشخصيات التي تمثلها، وتصبح عبارة عن قنوات يتم من خلالها التأثير على قرارات السلطان.

---

[1] - تطور الدولة في المغرب، ص.٦٩.

باستثناء أغمات التي قامت بها "إمارة" شورية،[١] نجد أن كل السلطات التي نشأت بالمغرب تميزت بالتمركز والاحتكار، نتيجة الاستبداد والتوريث وعامل القرابة والعصبية. فالحميريون، وبمجرد وفاة صالح بن منصور مؤسس إمارتهم، انتقل الحكم فيهم إلى أحد أبنائه الثلاثة[٢] المعتصم، وبذلك سيتم الأخذ بمبدأ الوراثة منذ بداية النظام السياسي. ورغم قول البكري[٣] بأن أهل البلد من قبائل صنهاجة وغمارة هم الذين "ولوا المعتصم" إلا أن هذا الطابع الاختياري لم يخرج عن مبدأ الوراثة كمظهر من مظاهر ضيق مجال تداول السلطة. ولم يلبث المعتصم إلا يسيرا ثم توفي، فانتقل الأمر إلى إبن أخيه سعيد بن إدريس، وعرفت مدة حكمه التي دامت سبعة وثلاثون سنة أحداثا متعددة، وبوفاته "ولي إبنه صالح بن سعيد ".[٤]

عند الخوارج الصفرية بسجلماسة تحولت الإمامة إلى ملك وراثي، إذ بعد إنشاء إمارتهم كان أول من وليها عيسى بن يزيد الأسود، لكن سرعان ما انقلبت عليه قبيلة مكناسة وولت أمرها لأبي القاسم "سمجو بن مزلان بن نزول المكناسي"،[٥] التي بقيت السلطة حبيسة عقبه وذريته، إذ بعد موته المفاجئ تولى الحكم "إبنه أبو الوزير إلياس بن أبي القاسم إلى أن قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع فخلعه سنة أربع وسبعين ومائة. فولي أبو المنتصر ... وتوفي سنة ثمان ومائتين ... وولي إبنه مدرار

---

١ - "...كانت إمرة أهل أغمات دولا بينهم، يتولى الرجل منهم سنة ثم يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق..." (البكري، المسالك، ج.II، ص.٣٣٩).

٢ - المعتصم وإدريس من أم صنهاجية ثم عبد الصمد (البكري، ج.II ، ص.٢٧٥).

٣ - البكري، ج.II، ص.٢٧٥.

٤ - البكري، ج.II، ص.٢٧٥-٢٧٦.

٥ - البكري، ج.II، ص.٢٧٥-٢٧٦.

المنتصر بن اليسع".[١] إذن هكذا استمرت السلطة في يد أسرة أبي القاسم المنتمي إلى عصبية مكناسة،كشكل من أشكال طابع انغلاق السلطة بالمدينة المغربية خلال الفترة المدروسة.

سارت الدولة الإدريسية على النهج نفسه، إذ بعد وفاة مؤسسها إدريس بن عبد الله العلوي، قام المولى راشد بالوصاية على العرش ريثما يولد وينضج خليفة أبيه، وهذا ما تم بالفعل إذ ورث إدريس الثاني تركة السلطة، والتي ستنتقل بعد موته إلى إبنه الأكبر محمد، الذي قسم المغرب إداريا بين إخوته تطبيقا لرأي جدته كنزة كما تروي المصادر التاريخية،[٢] وقسم هؤلاء المدن والمناطق التي ولوا عليها بين أبنائهم وتوارثها الأحفاد في إطار شبيه إلى حد كبير بالنظام الإقطاعي.

---

١ - البكري، ج.II، ص.٣٣٤-٣٣٥.

٢ - اختلفت هذه المصادر في عدد وأسماء إخوة محمد بن إدريس الذين ولاهم، وكذلك في المدن والمناطق التابعة لولايتهم. فالبكري يذكر أن الأخ الأكبر محمد بعدما اتخذ فاس قرارا وقاعدة له "ولى القاسم أخاه البصرة وطنجة وما والاهما. وولى عمر وازقور وسلى، وولى حمزة الأودية بقرب وليلي، وولى عبد الله لمطة وما والاها.." (المغرب، ج.II، ص.٣٠٨). ويقول إبن أبي زرع أن محمد "ولى أخاه القاسم مدينة طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر ومدينة تطوان وبلاد مصمودة وما والا ذلك من البلاد والقبائل. وولى أخاه داوود بلاد هوارة وبلاد تسول ومكناسة وجبال عياثة، وولى أخاه عيسى على شالة وسلا وأزمور وتامسنا وما والا ذلك من القبائل، وولى أخاه يحيى مدينة البصرة ومدينة أصيلة ومدينة العرائش إلى بلاد درعة، وولى أخاه عمر مدينة تيكساس ومدينة ترغة وبلاد صنهاجة وغمارة وما والاها، وولى أخاه أحمد مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلة، وولى أخاه عبد الله مدينة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس، وولى أخاه حمزة مدينة تلمسان وأعمالها.." (القرطاس، ص.٦٥) أما بن خلدون فيذكر أن عمر "اختص.. بتكيباس (تيكساس) وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة، واختص.القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة. ثم غلب عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله.. ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه.." (العبر، ج.VI، ص.٢٨٨-٢٨٩).

إذا انتقلنا إلى دولة الفاطميين الناشئة، وجدنا أن الخليفة الفاطمي المهدي (٢٩٧-٣٢٢ هـ) أول عمل قام به لتدعيم أركانها هو اغتيال الداعي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨ هـ، أي بعد عام واحد من قيامها، ويرجع ذلك إلى أن الخليفة الفاطمي كان يريد احتكار السلطة والاستئثار بها.[١]

تميز المرابطون في مرحلة الدعوة باعتمادهم على الشورى في اختيار زعمائهم واتخاذ قراراتهم، وهذا ما نستشفه من بعض المحطات والأحداث، فعندما توفي يحيى بن إبراهيم خلفه يحيى بن عمر بطريقة الإجماع التي تظهر من قول القاضي عياض : "وقلدوه أمرهم"،[٢] وهذا ما يبدو واضحا أيضا من وصية عبد الله بن ياسين الأخيرة قبيل وفاته متأثرا بجروح أصيب بها في إحدى المعارك مع البرغواطيين، فقد خاطب شيوخ المرابطين بقوله : "... يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم، وإني ميت في يومي هذا لا محالة، فإياكم أن تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا ألفة وأعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله تعالى، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة، فإن الله تعالى يوتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم، فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فيئكم ويأخذ زكاتكم وأعشاركم ...".[٣]

---

[١] - أحمد مختار العبادي، "السياسة الفاطمية نحو المغرب والأندلس"، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، المجلد V، ع.١-٢، ١٩٥٧، ص.١٩٩.

[٢] - القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٣، ج.VIII، ص.٨٢.

[٣] - **القرطاس**، ص.١٦٧.

هكذا تم اختيار أبي بكر بن عمر لزعامة الحركة بعد اتفاق رؤسائها واجتماعهم على ذلك ومباركة الإمام عبد الله بن ياسين،[١] لكن خلال إمارته حدث أن وقع خلاف وصراع بعض القبائل المشكلة للحلف المرابطي،[٢] فما كان منه إلا أن يرجع إلى الصحراء لحل النزاع، لكن بعد أن يترك خليفة له بالمغرب يقوم بتدبير الشؤون السياسية والعسكرية، وهنا ينفرد إبن عذاري رغم أنه بعيد عن الأحداث بإيراد الطريقة التي تم بها استخلاف أبي بكر لإبن عمه يوسف بن تاشفين، وهي تعبر عن غير قليل من اعتماد الشورى وتداول الأمر عند المرابطين على الأقل إلى حدود هذه المرحلة، إذ لما جاء الأمير اللمتوني خبر اقتتال القبائل الصحراوية التي تشكل المرتكز البشري لقوتهم، "بعث إلى أشياخ لمتونة وكبرائهم وعظامهم وقال لهم : "إن إخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم، وأنا مسافر- إن شاء الله- إليهم لآخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلا أستخلفه عليكم" فأطرق الجميع رؤوسهم وصمتوا ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن إجماع على ذلك فقال لهم : "لا بد أن تدبروا من ترونه يصلح لذلك"،[٣] يعني أن مبدأ الشورى كان حاضرا خلال هذه المرحلة من مسيرة المرابطين. على أية حال فقبل الخروج إلى الصحراء، استخلف يوسف بن تاشفين و"عقد له على المغرب وفوض إليه أمره ... واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته"،[٤] لكن هذا الأخير، وبعد أن قويت سلطته

---

[١]- **القرطاس**، ص.١٦٧.

[٢]- يذكر إبن خلدون أن هذا الخلاف وقع بين مسوفة ولمتونة (**العبر**، ج.VI، ص.٢٤٤)، فيما يشير إبن عذاري وصاحب الحلل إلى أنه حصل بين جدالة ولمتونة (**البيان المغرب**، ج.IV، ص.٢٠)، (**الحلل الموشية**، ص.٢٣).

[٣]- **البيان المغرب**، ج.IV، ص.٢٠.

[٤]- **القرطاس**، ص.١٧٠.

وتوسعت، سيقوم بـ"انقلاب أبيض" انتقلت معه السلطة من قاعدة "المشاركة القبلية إلى الاحتكار، وتحولت العلاقة بين الحاكم والمحكوم من قاعدة "كسب القلوب" إلى "الإنفراد بالمجد".[1]

يقول إبن أبي زرع[2] : "... فلما سمع الأمير أبو بكر بضخامة ملك يوسف بن تاشفين وما فتح الله عليه من بلاد المغرب أقبل إليه من الصحراء ليعزله من الصحراء ويولي غيره، فأحس يوسف بن تاشفين بذلك، فشاور زوجته في ذلك الأمر، فقالت له : إن إبن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فإن لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له غلظة حتى كأنك مساو له ومقاومه، ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف، واستكثر من ذلك، فإنه ببلاد الصحراء، وكل شيء عندهم من هنا مستطرف، فلما قرب الأمير أبو بكر بن عمر من عمل يوسف خرج إليه، فالتقاه في الطريق، فسلم عليه وهو راكب سلاما مختصرا ولم ينزل له، فنظر الأمير أبو بكر كثرة جيوشه، فقال له : يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها ؟ قال : أستعين بها على من خالفني، فارتاب أبو بكر من سلامه عليه راكبا ومن جوابه، فنظر إلى ألف بعير موقورة قد أقبلت، فقال ما هذه الإبل الموقورة ؟ قال : أيها الأمير جئتك بكل ما معي من مال وثياب وشيء من الإدام والطعام لتستعين به على الصحراء، فازداد تعرفا من حاله، وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر، فقال له : يا ابن عمي انزل نوصيك، فنزل يوسف ونزل الأمير أبو بكر، ففرش لهما فرش فقعدا عليه، فقال : يا يوسف إني وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه، فاتق الله في المسلمين، وأعتقني وأعتق نفسك، ولا تضيع

---

[1]- بوتشيش، "ظاهرة استبداد الدولة في العصر المرابطي"، ص.١٢٤-١٢٥.

[2]- **القرطاس**، ص.١٧١-١٧٢، وينظر كذلك : **الإستقصا**، ج.II، ص.١٨٥-١٨٦.

من أمور رعيتك شيئا فإنك مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء ..."، وذلك بعد أن استيقن و"علم أنه عزم على الاستبداد بالملك".[١]

يصور إبن عذاري[٢] اللقاء بين أبي بكر ويوسف بن تاشفين فيقول : "فلما علم الأمير أبو بكر أحوال يوسف وما هو عليه من الميل إلى نخوة الملك وعز السلطان عزم على تسليم الأمر، وعلم أيضا يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته،كما أن يوسف استمال نفوس إخوانه بإحسانه وأنعامه وزاد طمعه في الإنفراد والاستبداد. وانقطع رجاء أبي بكر من الملك، فبعث إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه، وعين له يوما معلوما يكون فيه اجتماعه به، فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده ... وأبو بكر معجب من كثرة عساكره واحتفال هيأته، يطيل النظر في ذلك كله، فتكلم الأمير أبي بكر مع يوسف في مصالح المسلمين، ثم قال له : "يا يوسف أنت إبن عمي ومحل أخي وأنا لا غنى لي عن معاونة إخواننا بالصحراء، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق به، وما وصلت إليك إلا لإمرتك في بلادك وأسلم لك الأمر وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا وموضع استيطاننا"، فدعا له الأمير يوسف وشكر له وقال له : "لك علي ألا أقطع أمرا دونك ولا أستأثر - إن شاء الله- بشيء عليك"، وأحضر أشياخ لمتونة الصحراويين،

١- **الحلل الموشية**، ص.٢٥، ويذكر إبن خلدون أن أبا بكر رجع "إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الإستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها، ففطن إلى ذلك الأمير أبو بكر وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر" (**العبر**، جVI، ص.٤٤٥).

٢- **البيان المغرب**، ج.IV، ص.٢٤-٢٥.

وخلع له أبو بكر نفسه، وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل وعاد الأمير أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله ورجع يوسف إلى مراكش دار مملكته، فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته...".

إذن فإقبال أبي بكر لعزل يوسف بن تاشفين باء بالفشل، ونجح هذا الأخير بمساعدة زوجته الهوارية في حسم مسألة السلطة لصالحه، وذلك عن طريق فرض سياسة الأمر الواقع ترغيبا وترهيبا، بل إنه استمال الموالين لأبي بكر بأن "أمر لهم بالكسوة الفاخرة والخيول المسومة والأموال الجمة والعبيد المتعددة ...".[١]

إذا كان رحيل الأمير أبي بكر قد ساعد على انتقال السلطة المرابطية ومركزتها بالمغرب في يد يوسف بن تاشفين، فإن التحركات العسكرية الموفقة لهذا الأخير، إضافة إلى الدعم السياسي والمعنوي والمالي والذي كانت تقدمه له زوجته زينب بنت إسحاق، كانا كفيلين بأن يجعلا منه أميرا على المرابطين.[٢] ولهذا لن يفلح إبراهيم بن أبي بكر في نزع السلطة المتجذرة في يده، حيث أعاد التاريخ نفسه ! وتم "إكرامه" والإنعام عليه بهدايا كما أنعم على أبيه من قبل. فمن قوة ملك إبن تاشفين أنه لم يعر المطالب بملك أبيه أي اهتمام، وفوض للأمير مزدلي مقابلته ومسألة الحسم معه،[٣] ما دام "أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خص هذا الرجل (أي يوسف) بالملك" ![٤]

١- إبن عذاري، ج.IV، ص.٢٢.

٢- السلامي، "ملاحظات..."، ص.٢٨٢.

٣- ينظر إبن عذاري، ج.IV، ص.٢٨-٣٠.

٤- إبن عذاري، ج.IV، ص.٢٩، والكلام لمزدلي، وهو يعبر عن شدة استمساك الأمير إبن تاشفين بالسلطة والملك.

إذا كانت قيادة الحركة المرابطية الصنهاجية قد تركزت خلال مرحلة الدعوة في قبيلتي كدالة ولمتونة، بل إنها في مرحلة معينة انحصرت في أسرة واحدة وهي أسرة بني ورتنطق اللمتونية، فإنه في مرحلة الدولة استبد يوسف بن تاشفين بأمر السلطة، "ولم يكن هذا هو التطور الوحيد الذي حدث عن طريق تداول السلطة داخل الدولة المرابطية، بل إن يوسف بعد أن استمر في حكم المغرب والأندلس لمدة ثلاثين سنة، لم يكن ليهون عليه أن يترك أمر خلافته لنظر الأمراء المرابطين بعد وفاته، بل بادر سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م إلى إعلان إبنه علي وليا للعهد، وصارت سنة".[١] وهكذا أصبح تداول السلطة والحكم يتم بالوراثة وولاية العهد، رغم أن يوسف بن تاشفين حاول إضفاء الشرعية على قراره "باستشارة أهل الرأي"،[٢] وبالتالي انتقل القرار من الشيوخ والزعماء إلى الحاكم الأول، أي السير في اتجاه ضيق السلطة والاستبداد بالرأي، وهو ما جر على المرابطين بعض القلاقل والمنافسات السياسية كان أولاها معارضة يحيى بن أبي بكر لعمه علي بن يوسف.[٣]

في إطار الحديث عن ظاهرة احتكار السلطة، نجد بأن ولاة الأقاليم كانوا يعينون من الأسرة نفسها أو العصبية الحاكمة في أبعد الحدود، بينما تظل باقي العصبيات بعيدة عن تدبير الشأن السياسي.

بالنسبة للأدارسة فقد قسم محمد بن إدريس المغرب إلى عدة أقاليم وجعل على رأسها أحد إخوته، الذين قسموا بدورهم "إقطاعاتهم" على أبنائهم وتوارثها أحفادهم. أما بالنسبة للمرابطين فقد كان يوسف بن تاشفين يعين ولاة الأقاليم من

١- بنسباع، **السلطة بين التسنن و"التشيع" والتصوف**، ص.٢٧-٢٨.

٢- **الحلل الموشية**، ص.٧٩.

٣- **القرطاس**، ص.٢٠٠.

عصبية صنهاجة وخاصة قبيلة لمتونة، إذ يخبرنا إبن خلدون أنه "اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه".[١] فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر واليا على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز، وكان عمر بن سليمان المسوفي واليا على مدينة فاس ونواحيها، وكان داوود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وتم تعيين تميم بن يوسف واليا على مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتادلا وتامسنا،[٢] وقد منح الأمير إبن تاشفين صلاحيات مطلقة في حق التصرف، من تعيين وعزل وقيام بحركات عسكرية، إذ هو القائد الأعلى للجيش ... وللإشارة فمن بين ٦٦ قائدا ووالیا نجد ٣٦ من قبيلة لمتونة، و٥ من مسوفة، واثنين فقط من قبيلة جدالة فيما يبقى ٢١ قائدا غير معروف الانتماء القبلي،[٣] ويحتفظ التاريخ بأسماء العائلات الكبرى التي شاركت في حكم المغرب والأندلس إبان زمن المرابطين، من مثل بني الحاج وبني مزدلي وبني أبي بكر وبني فاطمة وبني عائشة وبني يوسف بن تاشفين وبني عمر بن إبراهيم وبني إبراهيم بن تاشفين،[٤] وكلهم يرجعون إلى ترجون بن ورتاسن[٥] أو تورقيت بن ورتاقطن[٦] الذي تفرعت عنه أفخاذهم، فيما همشت القبائل والعصبيات الأخرى وأبعدت عن تدبير شؤون

١- العبر، ج.VI، ص.٢٤٧.

٢- محمد علي الصلابي، **الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين**، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط.١، ٢٠٠٣،ص.١٦٩.

٣- Vincent Lagardère, Esquisse de l'organisation militaire.., p.١٠٦، نقلا عن بزاوي، **المدن والتجارة والسلطة السياسية**، ص.٢٨٤.

٤- Vincent Lagardère, ***les Almoravides***, éditions l'harmattan, Paris, ١٩٨٩, p.١٦٨-١٧٩.

٥- إبن عذاري، ج.IV، ص.١٧.

٦- **الحلل الموشية**، ص.٢٤.

السلطة "محتفظة باستقلالها وتنظيمها. وهذا النموذج يظهر أنه أصبح قاعدة عامة لتاريخ المغرب".[١]

٣- **بعض الخصائص الأخرى** : لا ننسى أن نؤكد على أنه رغم الصلاحيات المطلقة للأمير أو الإمام أو ... في كل المجالات، ومن ضمنها الحق غير المحدود في التعيين والعزل، إلا أنه بالمقابل كانت للولاة سلطات واسعة وشبه مطلقة في مناطق نفوذهم، فالسلطة "المركزية" لا تتدخل إلا إذا دعت الضرورة لذلك وفي حالات نادرة، ولهذا لا يمكن أن نتحدث خلال هذه المرحلة عن "عاصمة سياسية" بالمفهوم المعاصر، تتوفر على إدارة مركزية تؤطر وتقنن وتوجه العلاقات الإدارية والسياسية العامة مع باقي أجزاء المجال الترابي التابع لها. فالأمير يمضي شطرا مهما من حياته في الحركات والتنقلات لاستخلاص الضرائب وإخضاع المدن والقبائل لحكمه، فحملات يوسف بن تاشفين العسكرية إلى سوس ودرعة والمناطق الشمالية وتلمسان ... مثلا، دامت على أقل تقدير حوالي ٢١ سنة،[٢] وبسبب ذلك كثيرا ما تعددت المدن القواعد رغم تباين أهميتها، خاصة مع تعدد العصبيات ووجود نظام لا مركزي فرضته ظروف تاريخية حاسمة. ولهذا فقد أخطأ الدارسون الذين رأوا في قرار تقسيم محمد بن إدريس المملكة بين إخوته تقسيما للدولة الإدريسية، "لأن ما جرى لا يتعدى محاولة إقرار نظام لا مركزي بعد أن أثبتت المركزية في عهدي إدريس الأول والثاني استحالة السيطرة على أقاليم الأسرة الإدريسية بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدي أفرادها، وهو أمر كفيل بتحقيق غايتين، الأولى :

١- ليليا بن سالم، **التحليل الإنقسامي لمجتمعات المغرب الكبير..**، ص.٢١، نقلا عن بزاوي، **المدن والتجارة..**، ص.٢٨٤.

٢- ينظر مثلا القرطاس، ص.١٧٥-١٨١/ العبر، ج.VI، ص٢٤٥-٢٤٧...

وضع حد لصراع العصبيات حول المناصب القيادية في الدولة الإدريسية. والثانية إحكام الهيمنة على مضارب القبائل بعد تطاول بعضها وانتزائها عن المخزن".[١]

إضافة إلى ما سبق، فإن شكل السلطة وتطورها بالمغرب قد خضع لمؤثرات وظروف متعددة، خاصة منها المتعلقة بالأحداث السياسية والعسكرية، وبالشخصيات والمبادئ ... التي ساهمت بقوة في تحديد ماهيتها وخصائصها. فعملية تنظيم السلطة تبلورت بالموازاة مع عملية التوسع وبسط النفوذ على مجالات جديدة، وما يطرحه ذلك من تحديات في التدبير والتحكم، كما ارتبطت السلطة في تطورها بمبدأ الإصلاح، بمعنى أنها تظهر وتنمو وتتوسع نتيجة مناداتها وعملها على إصلاح الأوضاع المتدهورة، والقضاء على البدع والتشرذم عبر طريق واحد هو طريق الجهاد، لكنها - ومع الصيرورة الزمنية - تتراجع عن الالتزام بالمبادئ المثالية الحالمة التي أعلنتها ابتداء جزئيا على الأقل، وذلك بفعل الضمور التدريجي لتلك المبادئ والأهداف مع غياب المؤسسين الأوائل وتوالي الأجيال، ثم بسبب إكراه الواقع الصعب. فلا يمكن مثلا إنكار بصمات الشخصية المحورية والرمزية لعبد الله بن ياسين في سلطة المرابطين، فقد كان "هو الأمير على الحقيقة، لأنه هو الذي يأمر وينهى، ويعطي ويأخذ"،[٢] فهو الإمام والزعيم والمرشد الديني.

إذن فقد تظافرت عوامل داخلية وخارجية متعددة لتحديد طبيعة السلطة ومميزاتها بالمغرب، من تأرجح بين التبعية الخارجية والإستقلال، وضيق مجال تداولها، وارتكازها على القوة والعنف المستمدين من الطاقة البشرية (العصبية) والموارد الإقتصادية، والمبررين بالشرع.

---

(١)- محمود إسماعيل، **الأدارسة (١٧٢-٣٧٥ هـ) : حقائق جديدة**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص.٧٩-٨٠.

(٢)- **القرطاس**، ص.١٦٠.

ثانيا : السلطة والمدينة : مرتكزات التدبير السياسي

*****

تنبني السلطة على القوة لتحقيق وجودها وضمان استمرارها، سواء تعلق الأمر بالقوة البشرية والاجتماعية أو تلك المستمدة من الشرعية الدينية، أو المرتكزة على الموارد الاقتصادية والمالية والمادية عموما.

١. **القوة البشرية** : يعد المرتكز البشري المتمثل في العصبية القبلية وسيلة للوصول إلى الملك والسلطة من جهة، وكذلك لتدبير شؤون الدولة عند استوائها من جهة ثانية. ذلك بأن "أهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها، وينقسمون عليها، فيما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا، وكان ملكها أوسع لذلك".[١] فالطاقة البشرية المتمثلة في الرابطة الدموية ومدى قوتها وتماسكها هي التي تسمح بتجذر السلطة وتوسعها، وتتجلى هذه القوة في عدد الرجال ومدى النفوذ الذي يتمتعون به، وكذلك في شبكة علاقاتهم بعناصر خارج القبيلة ... إذ أن "الملك [السلطة] منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيارات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية"،[٢] والعصبية القبلية هي "قوة الدم المشترك التي تحرك كل ميادين الحياة المجتمعية داخل التمركز القبلي، وتجعله يلتف حول رئيس عسكري أو سلطة

---

[١]- إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١٥١.

[٢]- إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١٤٣.

أسرية".[١] إن الناس يحتاجون في اجتماعهم وعيشهم المشترك إلى "وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلب عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك، وهذا التغلب هو الملك [السلطة] وهو أمر زائد على الرئاسة، لأن الرئاسة إنما هي سؤدد، وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب النفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا"،[٢] بذلك تساعد هذه الأخيرة على تأسيس سلطة سياسية قوية وقادرة على السيطرة على أكبر مجال جغرافي ممكن والحفاظ عليه وتدبيره خاصة في أوجها وعنفوانها.

هكذا لم تستطع أي سلطة مغربية تجاوز الإطار القبلي، فبنو مدرار ارتكزوا في حكمهم على عصبية مكناسة، إذ أن منطقة سجلماسة كانت مسكونة وعامرة قبل القبائل البربرية بجماعات من السود، ووجد بها حكم قائم الذات، ولهذا اقترح الخوارج الصفرية على عيسى بن يزيد الأسود أن يكون حاكما عليهم لضعف عددهم، وخوفا من ضغط الخلافة الإسلامية اتجاه تعامله مع هؤلاء الخارجين ...[٣] لكن بتأسيس سجلماسة واستقطابها للقبائل المكناسية المجاورة التي تقوت شوكتها وأضحت أكثر العصبيات عددا وأقواها عدة أمكن لبني مدرار تحقيق مرادهم في

---

[١]- محمد عزيز الحبابي، "الدينامية المحركة للتاريخ عند إبن خلدون"، ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي، ضمن **الفكر الاجتماعي الخلدوني: المنهج والمفاهيم والأزمة المغربية**، سلسلة كتب المستقبل العربي (٣١)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.١، ٢٠٠٤، ص.٨٦.

[٢]- إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١٣٠.

[٣]- العربي السهلي، "المدراريون في سجلماسة"، ضمن ندوة **سجلماسة تاريخيا وأثريا**، نشر وزارة الثقافة، مطابع ميثاق المغرب، ص.٢٠.

احتكار السلطة، حيث تم عزل عيسى الأسود زعيم السودان ومبايعة أبي القاسم سمكو بن واسول المكناسي.[١]

إذا كانت سلطة بني مدرار قد اعتمدت في أساسها البشري على العصبية المكناسية، فإن نظيرتها الإدريسية لم تنشأ على أساس إرادة قبيلة واحدة، بل انبنت على قاعدة بشرية أوسع ضمت قبائل شتى، وكانت أوربة أول من اعترفت بسلطة الأدارسة ودعمتها، لكن أعيان هذه القبيلة اعتبروا أن الإقتصار على مساندة قبيلة واحدة لا يمكن أن يضمن تطور السلطة الناشئة واستمرارها، وهو الشعور نفسه الذي كان إدريس الأول يحمله، ويحرص على أن تسانده قبائل أخرى وتلتف حوله، ولهذا كانت خطوة ضم عدد من القبائل المعروفة لتكون إلى جانبه،[٢] وفي هذا المضمار يذكر إبن أبي زرع أن "أول من بايعه (إدريس الأول) قبائل أوربة، بايعوه على الإمارة والقيام بأمرهم وصلواتهم وغزواتهم، وكانت أوربة في ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب وأكثرها عددا وأشدها قوة وبأسا وأحدها شوكة، ثم بعد ذلك أتته قبائل زناتة وأصناف قبائل البربر من أهل المغرب منهم زواغة وزواوة ولماية ولواتة وصدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة، فبايعوه ودخلوا في طاعته، فقويت أموره وتمكن سلطانه ... وأخذ جيشا عظيما من وجوه قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وغيرهم"،[٣] كما "وفدت على إدريس (الثاني) ... وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس في نحو خمسمائة من القيسية والأزد ومذحج وبني يحصب والصدف

---

[١]- ينظر: البكري، **المسالك**، ج.II، ص.٣٣٤/ **العبر**، ج.VI، ص.١٧٢.

[٢]- محمد زنيبر، **المدينة في العصر الوسيط، الدولة-المدينة-الإقتصاد**، تنسيق محمد المغراوي، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٤، منشورات كلية الآداب-الرباط، ص.٦٠-٦١.

[٣]- **القرطاس**، ص.٢٣-٢٤.

وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته ... ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق، فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلي".[١]

استطاع المرابطون توحيد الغرب الإسلامي تحت سلطة وحكم واحد لأول مرة في التاريخ، بفعل قوة العصبية الصنهاجية، وخاصة اللمتونية التي هيمن أبناؤها على المناصب السياسية في الدولة كما أشرنا سالفا. فرغم قيام الدعوة المرابطية بوظيفة مهمة في إضفاء الشرعية على حكم المرابطين، فإنها مع ذلك لم تبلغ الدور البالغ الأهمية الذي قامت به قبائل صنهاجة في إرساء قواعد الدولة.[٢]

الملاحظ أنه بقدر تزايد نفوذ سلطة ما تتزايد حاجتها إلى حلفاء من خارج عصبيتها، لهذا فقد انفتحت العصبيات الحاكمة على بعض القبائل والفئات للإعتماد عليها في ضبط وتدبير مجالها الترابي، وبهدف القدرة على الامتداد والتوسع، يقول إبن خلدون[٣] : "... إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها ... وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا. وزادتاها قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد ..."، وهذا ما يتبين من خلال قوة الأدارسة التي ارتكزت في البداية على قبيلة أوربة، ثم ضمت قبائل بربرية أخرى لتدعيم مركزها وتوسعاتها، بالإضافة إلى الإعتماد على العنصر العربي كما مر الذكر. أما بالنسبة للمرابطين، فرغم أنهم استندوا على قبائل صنهاجة اللثام لإنشاء قوات عسكرية منضبطة، فإن التنافس على

---

[١]- القرطاس، ص.٣٥.

[٢]- شقير، تطور الدولة بالمغرب، ص.٨٦.

[٣]- المقدمة، ص.١٣١.

الحكم واحتياجات الدولة تطلبا تكوين جيش يتعدى الإطار القبلي إلى عناصر غير قبلية، وليست لها أي جذور اجتماعية، ولا يرتبط انضباطها وولاؤها إلا بالسلطان أو الأمير، ولهذا فقد أنشأ يوسف بن تاشفين حرسه الخاص من العبيد المجلوبين من السودان، والمقدر بحوالي ألفي مقاتل[١] "دربوا أعظم دربة وزودوا بأجود الأسلحة حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها ..."،[٢] واعتمد على قبائل الغز التركية،[٣] كما اشترى من الأندلس "جملة من العلوج" من الصقالبة وغيرهم، "وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسا"،[٤] زد على هذا القبائل المغربية التي أدخلوها تحت حكمهم كجزولة ومصمودة وزناتة.[٥]

إن ممثلي الفئات العليا من النخبة السياسية والعسكرية والدينية يجسدون مركزا قويا للتضامن داخل كل عصبية، يلتف حوله الأتباع والحلفاء في إطار الخضوع والولاء. "لكن ما إن يساهم الحلفاء والموالي في توطيد السيادة، بما تقتضيه العصبية التي ينتمون إليها، حتى يشعروا بأنهم الركائز الضرورية المباشرة في تسيير الدولة فيتطلعون للاستفادة من الامتيازات السياسية والمادية. إذاك يجهدون أنفسهم لتغيير أوضاعهم من مجرد أدوات يسخرها أصحاب السلطة، ليسوا مشاركين في الحكم ... فتنتهي الأسرة الحاكمة بحزم، وأحيانا بعنف لإبعاد هؤلاء "الأنصار" الذين يطالبون بتقاسم السيادة ويمثلون خطرا عليها. ويبذل الحاكم قصارى جهده للحفاظ على

---

[١]- **الحلل الموشية**، ص.٢٥.

[٢]- محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، القسم الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط.١، ١٩٦٤، ص.٤١٨.

[٣]- **القرطاس**، ص.١٧٦.

[٤]- **الحلل الموشية**، ص.٢٥.

[٥]- **القرطاس**، ص.١٧٦.

الحكم المطلق ووحدة الدولة وتمركزها ... هكذا ومتى وصلت الدولة حد النضج، تجاهلت المصالح الخاصة بالعشائر ... وتتقوى بعناصر متفرعة عن العصبيات الأولى في الوقت الذي تخفي فيه الدولة في قرارة نفسها نية تفكيك تلك العناصر بدورها، وتحييدها"،[١] كما يتم اللجوء إلى "المصطنعين" للقضاء على كل خصم أو منافس من أهل العصبية.[٢]

لهذا فكلما استطاعت السلطة الحاكمة أن تحافظ على لحمة عصبيتها ومكوناتها الاجتماعية والقبلية، مع انفتاحها على قوى جديدة من القبائل والموالي و"المصطنعين"، كلما مكنها ذلك من اكتساب مناعة من التفكك والاضطراب وأهلها للاستمرار في الوجود.

٢ . **المرتكز الديني** : إن الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام قد ساهما بشكل أساس في تبلور وتقوية السلطة المغربية، إذ أن المغرب لم يستطع قبل ذلك بناء سلطة سياسية تعمل على توحيد المجال وتربط بين أجزائه،[٣] فخصائص الإسلام التوحيدية سمحت بخلق أمة واحدة منسجمة تؤمن بالله الواحد، وترتبط بمصير مشترك،[٤] وفق مبادئ الحرية والعدل والإخاء.

---

[١]- الحبابي، "الدينامية المحركة للتاريخ عند إبن خلدون"، ص.٨٧-٨٨.

[٢]- إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١٧١.

[٣]- الكبير بزاوي، **دور الدعوة في نشأة الدولة المغربية**، د.د.ع. في التاريخ ، كلية الآداب الرباط، ١٩٨٦-١٩٨٧، ص.٧١.

[٤]- بزاوي، **دور الدعوة..**، ص.١١٥.

من جانب آخر، بما أن كل سلطة هي قوة وعنف وغلبة، فإنها كانت محتاجة دوما إلى "شرعنة" سلوكها ونهجها القهري، ولهذا كان الدين حاضرا دوما أيضا باعتباره ركنا متينا لكل كيان سياسي، فنشر الإسلام وتغيير المنكرات وإقامة العدل ومحاربة البدع والانحرافات...كلها مثلت قاعدة للمشروعية الدينية لزعماء المرحلة المعنية، وعموما فالإصلاح الديني والعقدي خلال العصر الوسيط أجمع كان الوسيلة الفعالة لبناء السلطة السياسية، إذ أن هذا الإصلاح كان يعني كافة الجوانب سواء الإجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية أو الثقافية ... بحكم هيمنة الدين على الحياة العامة، ولهذا فأغلب الدعوات والحركات الإصلاحية "التي تحولت إلى دول كان روادها يلوحون بمشاريع الإصلاح العقدي".[١]

ارتكزت سلطة الفاتحين على أسس دينية، تمثلت في الرغبة في نشر الإسلام وإخضاع مجالات جغرافية جديدة لنفوذه، وقامت دولة الأدارسة على أساس البيعة لعلوي فر بنفسه ... على الإمارة والصلاة وجهاد الكفار من النصارى واليهود والمجوس،[٢] ولذلك "لم يزل الإمام إدريس يجاهدهم ويستنزلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعا وكرها ... وأباد من أبى الإسلام منهم بالقتل أو السبي".[٣]

انبنت محاربة الخوارج للحكم الأموي بدورها على أسس دينية، وذلك من خلال تبني مبادئ الدين الإسلامي التي تدعو إلى الحرية والمساواة ورفض الظلم والاستعباد، وهذا ما بدا واضحا مع اندلاع الثورات الخارجية، التي استطاعت

١- بولقطيب الحسين، "أسس ومكونات الدولة المغربية في العصر الوسيط : الدولة الموحدية نموذجا"، **مجلة أبحاث**، ع.٢٤-٢٥، ١٩٩٠، ص.٥٨.

٢- **القرطاس**، ص.٢٣-٢٤.

٣- **القرطاس**، ص.٢٤.

تأسيس كيانات مذهبية وسياسية مستقلة. فالخوارج الصفرية كانوا يهدفون إلى نشر الإسلام وتعميمه بين الأمازيغ وفق منظور المذهب الصفري، وتوج عملهم بتأسيس دولة بني مدرار.

عرف مؤسس الدولة الحميرية ببلاد نكور بـ"العبد الصالح"،[١] والتي لها مدلول ديني، واشتهر إبنه المعتصم بكونه "شهما شريف النفس كثير العبادة، وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه"،[٢] كما اجتهد أمراء بني صالح في نشر الإسلام بين قبائل غمارة وصنهاجة، مما يدل على ارتباط نظامهم السياسي بالطابع الديني والأخلاقي.

أما سلطة المرابطين فقد تقوى بنيانها وامتد نفوذها بفعل عوامل متعددة، من بينها قيامها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر المذهب المالكي عن طريق الجهاد. "فالمرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم"،[٣] فنحن -كما ذكر ذ.محمد القبلي-[٤] "أمام حركة متمركزة تضع نفسها ضمن توجه ديني تود له أن يصحح أوضاعا اجتماعية اعتبرتها منحرفة عن الجادة فركزت على الدعوة إلى تقويمها مع إلزام الحكام بالأخذ بمقتضيات الإصلاح وتعميمها ... وهكذا تتقدم هذه التجربة على أنها مبادرة إصلاحية تنطلق من الدين والمذهب لتفضي إلى تنظيم الحياة اليومية ومراجعة

---

[١]- ينظر مثلا : العبر، ج.VI، ص.٢٨٣.

[٢]- ينظر مثلا : العبر، ج.VI، ص.٢٨٣.

[٣]- الكلام لأبي بكر بن العربي المعافري، ينظر الحلل الموشية، ص.١٤٠.

[٤]- "حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط"، المناهل، ع.٦٩-٧٠، س.٢٦، يناير ٢٠٠٤، ص.٩.

الوضع الجبائي بمجموع المجال الواقع تحت نفوذ المركز. ومؤدى كل هذا أن الأمر يتعلق بإقامة الحكم على أسس الأحكام بحثا عن المشروعية من جهة، ومن جهة أخرى فإن البرنامج العملي المندرج ضمنها قد يؤول في الواقع إلى تغيير المنكر عموما ووضع حد للتجاوزات الجبائية".

تبدأ قصة دعوة المرابطين بحج يحيى بن إبراهيم زعيم حلف صنهاجة إلى البيت الحرام، ولقائه بالفقيه أبي عمران الفاسي بالقيروان، حيث دار بينهما حوار حول الأوضاع الدينية والمذهبية بموطن الملثمين، ثم دله على وجاج بن زلو[١] الذي اختار له بدوره عبد الله بن ياسين مرشدا ومصلحا دينيا. من هنا ظهرت الملامح والخطوات الأولى لتلك الحركة الإصلاحية الهادفة إلى الرجوع إلى ينابيع الإسلام الصافية المخلصة من كل الشوائب الوثنية والبدعية الضالة.

على أي، فغير بعيد أن تتشكل رابطة فكرية وروحية ومذهبية بين علماء أهل السنة والجماعة خلال هذا العصر لمواجهة المد الشيعي والتصدي للإنحرافات،[٢] ولهذا فمن الممكن أن يوجد من العلماء المالكيين من ينتمون لهذه الرابطة والسلسلة، وهم الذين عرضوا على يحيى بن إبراهيم اصطحاب مرشد ومعلم لمبادئ الإسلام وأحكامه وفق المذهب السني المالكي،[٣] كما يرجح أن يكون أبو عمران الفاسي قد ندب يحيى إلى حرب ازناتة وبورغواطة، وللقضاء على الفوضى السياسية والعقدية

---

[١]- وجاج بن زلوي حسب البكري، **المسالك**، ج.II، ص.٣٥٢.

[٢]- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج.II، ص.١١٢/ Abbes Jirari, les Almoravides (Etat-Oeuvre, Doctrime) ع.٢، *دراسات إفريقية*، ١٩٨٦، ص.١٦٢ .

[٣]- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج.II، ص.١١٢-١١٣.

التي كان المغرب يتخبط فيها،[١] حيث كثرة القوى السياسية المتصارعة وكثرة المشعوذين والمتنبئين.

كان رباط عبد الله بن ياسين بنهر السنغال مركزا لخلق وعي جماعي مرتكز على تبني مفهوم الأمة الذي هو أوسع من مفهوم القبيلة، إذ اجتمع فيه مستجيبون وأتباع من قبائل مختلفة وعصبيات متنابذة.[٢] واسترخص المرابطون أنفسهم في سبيل تحقيق هدفهم المنشود المتمثل في بناء مجتمع مثالي، فقد "كان الرباط بمثابة النواة الأولى والنموذج الأمثل الذي كانت الرابطة تسعى إلى تحقيقه، لذا فكان كل عضو من أعضائها يناضل من أجل تحقيق هذا النموذج الإجتماعي والسياسي الذي تربى داخله وعاش في أحضانه، فالمرابطي ... لم يكن يناضل من أجل سراب سياسي، بل من أجل تحقيق وتعميم نموذج مصغر من حياة المرابط ".[٣]

لتحقيق ذلك المجتمع الإسلامي المنشود كان عبد الله بن ياسين لا يتوانى في معاقبة من تخلف عن صلاة الجماعة، بل حتى من فاتته ركعة واحدة منها حسب ما ترويه المصادر التاريخية،[٤] كما عمل على تأهيل وتدريب رجال أخذوا على عاتقهم فريضة الجهاد شمالا وجنوبا، إذ "لما كمل معهم ألف من الرجالات، قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين : إن ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى

---

[١]- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج.II، ص.١١٢-١١٣.

[٢]- زمامة عبد القادر، "أبو عمران الغفجومي"، **مجلة البينة**، مج.I، ع.٣-٤، ١٩٦٢، ص.٧٧.

[٣]- محمد شقير، "التنظيمات السياسية بالمغرب"، **منشورات المجلة المغربية لعلم الإجتماع السياسي**، مطبعة المعارف الجديدة، البيضاء، ١٩٩٣، ص.١٤.

[٤]- ينظر البكري، ج.II، ص.٣٥٧.

عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة".[١]

ويذكر صاحب "الحلل"[٢] أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن ياسين لما رأى استقامة لمتونة واجتهادهم، أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب، فقال لهم : "إنكم

---

[١]- العبر، ج.VI، ص.٢٤٣. ويذكر إبن أبي زرع أن عبد الله بن ياسين لما رأى إعراض قبائل صنهاجة والتجأ إلى تلك الجزيرة الصغيرة التي جعلها رباطا له، بدأ يرد عليه الناس التائبون "فأخذ ... يقرئهم القرآن، ويستميلهم إلى الآخرة ويرغبهم في ثواب الله تعالى ويحذرهم أليم عذابه حتى تمكن حبه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ هو يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا أقام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم إلى الجنة، وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم : يا معشر المرابطين إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا، فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته ... فخرج عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة ... فلما يئس منهم قال لأصحابه : قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى، فبدأ أولا بقبيلة كدالة ... ثم سار إلى قبائل لمتونة ... ثم سار إلى قبائل مسوفة حتى أذعنوا وبايعوه على ما بايعته قبائل لمتونة وكدالة. فلما رأى ذلك قبائل صنهاجة ولمتونة سارعوا إلى التوبة وإلى مبايعته وأقروا له بالسمع والطاعة ... وأخذ... يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء ..." (القرطاس، ص.١٥٨-١٥٩).

[٢]- الحلل الموشية، ص.٢٢.

صبرتم، ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم ما كان أمامكم. وستفتحون - إن شاء الله- ما وراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة ..."، وذلك بمبرر حرب مغراوة بني خزر لظلمهم وطغيانهم، بعد أن "كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين ... من العسف والجور من بني وانودين أمراء سجلماسة ... فدخلوها غلابا وقتلوا من كان بها من أهل مغراوة، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس ..."،[1] كما قسم ابن ياسين خمس الغنائم على الفقهاء والصلحاء، وأحرق الدور التي كانت تباع بها الخمور.[2]

يشير أحد الباحثين إلى أن سجلماسة ودرعة كانت منطقة لصراع بين التيار السني والخارجي والشيعي[3] على الخصوص، والذي انتهى لصالح المذهب المالكي مع مجيء المرابطين. هذا المذهب الذي أصبح خطا وحدويا بصبغته الثورية والإصلاحية التي برز بها، خاصة في المراحل الأولى للدولة المرابطية التي وجدت فيه سندا ودعما لمشروعية تحركاتها الوحدوية.[4]

هكذا فمن خلال حملاتهم العسكرية تمكن المرابطون من تعميم مذهب الإمام مالك، وفرض مبادئه عن طريق الجهاد والنهي عن المنكرات وإبطال البدع والانحرافات والظلم والفساد، واستعمال القوة في تطبيق الشريعة الإسلامية والطاعة لزعماء الدعوة المرابطية. "وكل هذه المبادئ، التي كانت ذات طابع سني وديني، كانت تبطن أهدافا سياسية تتلخص في فرض إطار فقهي يلتزم به الجميع،

---

[1]- العبر، ج.VI، ص.٢٤٣-٢٤٤، وينظر كذلك **القرطاس**، ص.١٦٢-١٦٣.

[2]- **القرطاس**، ص.١٦٣.

[3]- العربي السهلي، "المدراريون في سجلماسة"، ص.٢٠.

[4]- Abbes Jırari, les Almoravides,p.١٦٤

وتقوم بفرضه سلطة سياسية موحدة".[١] إذ رغم انتشار الإسلام منذ الفتح، فإن مبادئه لم تكن تطبق بشكل موحد ووفق رؤية موحدة، فكثيرا ما امتزجت العادات المحلية والتأثيرات الدينية السابقة و"اجتهادات" بعض المتنبئين بجوهر الدين الإسلامي الصحيح، نموذج بورغواطة وحاميم وغيرهما. ولهذا شن المرابطون حملة شعواء على كل هذه البدع وجاهدوا معتنقيها بدافع ديني بالأساس، كما هو الشأن بالنسبة "لقتال بورغواطة المرتدين عن الإسلام".[٢] أضف إلى هذه الانحرافات الدينية والعقدية، استمرار وجود ديانات سابقة للإسلام كاليهودية والمسيحية. فقد انتشرت هذه الأخيرة خصوصا بعد نهاية الوجود الروماني، إذ تشكلت عدة إمارات مسيحية، أو ما كان يسميها الفاتحون "الروم"، مثل إمارة يوليان الغماري في الشمال، وإمارة الكوشيين بمنطقة درعة، ثم إمارات يهودية كإمارة زاكورة التي تكونت ما بين ق.٧و٨م، والتي انهارت بعد استيلاء المرابطين على عاصمتها زاكورة.[٣]

لقد أصبح هذا الوضع المزري يستدعي استنفار سلطة سياسية إسلامية جديدة قوية، و"لقد بدا واضحا أن تطور الأحداث في منطقة الغرب الإسلامي قد جعلت من يوسف بن تاشفين الرجل المناسب لتغيير هذه الأوضاع، وأهلته للعب دور حاسم في دعم الإسلام السني واسترجاع هيبة المسلمين، لذلك لم تتوقف المصادر التاريخية سواء المشرقية أو المغربية أو الأندلسية في الحديث عن يوسف ووصفه بأوصاف تعبر عن قوته وحنكته السياسية ودرايته بأمور الحرب وأنه موحد بلاد

١- شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص.١٧١.

٢- **الإستبصار**، ص.٣١٤.

٣- شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص.١٧٣.

الإسلام في غرب الخلافة وقاهر الأعداء والكفار"،[١] كما اتخذ يوسف بن تاشفين لقب "أمير المسلمين وناصر الدين"،[٢] وطلب التقليد الخليفي، و"إنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله - مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه - لتكون ولايته مستندة إلى الشرع، وهذا من ورعه رحمه الله"،[٣] كما أنه لم يتخذ لقب "أمير المؤمنين" حتى لا يشارك الخليفة القرشي لقبا خاصا به.[٤] إذن فالأساس الديني كان حاضرا في القضايا والمحطات الكبرى لسلطة المرابطين وسياستهم، ونستشف ذلك أيضا من وصايا قادتهم، فعبد الله بن ياسين أوصى شيوخ المرابطين قبيل وفاته، فكان مما قال : "... كونوا ألفة وأعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله تعالى، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة، فإن الله يوتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده ...".[٥] كما أوصى أبو بكر إبن تاشفين قائلا : "...يا يوسف إني وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين واعتق نفسك ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فإنك مسؤول عنهم ...".[٦]

ومن مظاهر اعتماد السلطة المرابطية على المرتكز الديني أن القرارات السياسية التي كان يتخذها الأمراء المرابطون لا تتم في الغالب الأعم إلا بعد استشارة الفقهاء وتزكيتهم لها، "وقد ساهم هؤلاء بدور فعال في تسيير شؤون الدولة والحكم، بحيث

---

[١]- السلامي، "ملاحظات .."، ص.٢٩٤-٢٩٥.

[٢]- ينظر كتاب يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان ... يخبرهم فيه بهذا القرار، ويدعوهم إلى مخاطبته بهذا اللقب (**الحلل الموشية**، ص.٣٠).

[٣]- الناصري، **الإستقصا**، ج. II، ص.٢٣٠.

[٤]- **الحلل الموشية**، ص.٢٩/ إبن عذاري، ج.IV ، ص.٢٧ / **الإستقصا**، ج.II، ص.٢٣٠.

[٥]- **القرطاس**، ص.١٦٧.

[٦]- **القرطاس**، ص.١٧١-١٧٢.

كانوا يشاركون في مجلس الأمراء ويرافقونهم في تنقلاتهم،كما كانوا يشغلون بعض الوظائف السامية وخاصة القضاء، ويتقاضون رواتب كبيرة من الدولة. ولعل هذه المكانة السياسية التي كان يتمتع بها الفقهاء ترجع بالأساس إلى الدور الذي كانوا يلعبونه من خلال إضفاء الشرعية السياسية على السلطة القائمة، إذ وجد المرابطون في مؤسسة الفقهاء المؤسسة الأساسية التي تضفي على سلطتهم الشرعية اللازمة، وذلك من خلال إصدار هؤلاء لفتاوى تزكي السياسة الرسمية وتضفي عليها الشرعية".[١] ومن جهة أخرى، فقد حملت السكة المرابطية شعارات دينية من مثل[٢] **"لا إله إلا الله محمد رسول الله"، "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في** الآخرة من الخاسرين". والأمر نفسه بالنسبة لباقي الدول المغربية الحاكمة، فالأدارسة كتبوا على نقودهم كلمة التوحيد **"لا إله إلا الله وحده لا شريك له" و"محمد رسول الله" و"جاء الحق وزهق الباطل..."**،[٣] وقبلهم كتبت عبارة **"محمد رسول الله"** على النقود بعد الفتح الإسلامي للمغرب.

كانت هذه إذن بعض القرائن والأمثلة التي يتجلى من خلالها مدى ارتكاز السلطة المغربية على الجانب الديني والشرعية الدينية، إذ كان الدين دوما سببا في قيامها واستمرارها، ولم يكن أبدا - كما ذكر جوليان[٤] في حديثه عن المرابطين- سببا في سقوطها، كنتيجة طبيعية لقتله المجهود الفكري وإطفائه العاطفة الدينية. وإنما قد

---

[١]- شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص.١٧٦.

[٢]- **القرطاس**، ص.١٧٤.

[٣]- ينظر، عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، ج.I، ص.٣٢٨-٣٢٩.

[٤]- شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر/ الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٨، ص.١١٥-١١٦.

يرجع هذا السقوط بالأساس،كما هو الشأن بالنسبة لدولة الملثمين، إلى ضعف تجربتهم التنظيمية وعدم استيعابهم وقدرتهم على التعامل بحكمة مع التغيرات المتسارعة.

من هنا يلاحظ أن كل الدعوات الإصلاحية "قد ارتبطت ارتباطا عضويا بإقامة مشروعية الحكم على أسس دينية فتقدمت بالتالي كأداة موجهة للإنقاذ من الزيغ والضلال. وبغض النظر عن هذه الثابتة الملحة، يلاحظ أن البرنامج المواكب لكل مشروع يتكون كسابقه من شقين يجمعان ما بين الدعوة إلى إصلاح الشأن العام إجمالا وبين المطالبة بتدخل عاجل مكثف يسعى إلى محو المكوس وإلغاء المغارم المستحدثة الخارجة عن الشرع. وفوق هذا وذاك، يلاحظ أن نمطية "السلف الصالح" تبدو مطلبا مشتركا على مستوى الخطاب"،[1] لكن مع توالي الزمن ومتغيرات الواقع وتبدل الأحوال غالبا ما تبدأ هذه المبادئ الدينية في التراجع شيئا فشيئا مما يعرض السلطة إلى اختلال أحد أهم أسس شرعية وجودها، ويفسح المجال أمام تعاظم قوى دينية جديدة أخرى.

٣. **الموارد الإقتصادية** : اعتمدت مختلف السلطات المغربية منذ تكونها على موارد متنوعة، كغنائم الحرب والغزو والضرائب المفروضة على التجارة سواء الداخلية أو الخارجية. "فالغنائم ...كانت تشكل أحد الموارد الرئيسية لخزينة الدولة، لذا فقد قامت سياستها الخارجية على أساس التوسع والغزو الذي اتخذ طابعا دينيا، بحيث شكل الجهاد أحد المهام الرئيسية للسلطة المركزية ... فالتوسع غالبا ما كان يدر عليها مكاسب مادية يكون مصدرها الفيء المترتب عن الغزو،

---

[1]- القبلي، "حول الإصلاح وإعادة الإصلاح.."، ص.١١.

وكذا العشور ومختلف المكوس التي تفرض على السكان في هذه المناطق "،[١] كما أن التحكم في مجالات واسعة يبقى مسألة حيوية تمكنها من تغطية حاجتها إلى المال الذي هو عصبها، ويشكل لها احتياطا عقاريا مهما.[٢]

وشكل استخلاص الضرائب من التجارة البعيدة المدى أيضا أحد الموارد الخارجية لخزينة الدولة المغربية، إذ أن الوساطة التجارية التي كان يقوم بها المغرب بين إفريقيا والمشرق الإسلامي وأوربا جعلت أغلب الأسر التي تحكم المغرب، تضع في حساباتها أهمية السيطرة على المسالك التجارية.[٣] ورغم أن الدارسين قد تطرقوا بعناية لتجارة القوافل، إلا أن ربط ذلك بمسألة الوضع السياسي واحتكار السلطة السياسية كان أقل.

والملاحظ أن الموارد الاقتصادية للسلطة تميزت بعدم الإنتظام، وذلك حسب مدى قوتها أو ضعفها، ومدى امتدادها ونفوذها، والظروف المحيطة بها والمرحلة التي تمر منها. فالجباية مثلا، تطورت بتطور الدولة وتزايد نفقاتها العسكرية وحاجاتها المتعددة التي تتضخم باستمرار، ولهذا فهي تنتقل من الاكتفاء بالواجبات المالية الشرعية إلى فرض الضرائب غير شرعية، خاصة على أهل المدن أو من تستطيع السلطة الوصول إليه والتحكم فيه من المناطق القريبة، عكس الأطراف التي تحاول جاهدة التملص من المكوس، وبصفة أخص في دور هرم الدولة وعجزها.[٤]

١- شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص.٧٠-٧١.

٢- محمد فتحة، **المؤسسة السلطانية والمجال : أمثلة عن العصر الوسيط**، البحث العلمي، ع.٢، ٢٠٠٤، ص.٢٢.

٣- شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص.٧١.

٤- **المقدمة**، ص.٢٥٥-٢٥٧.

فالمرابطون مثلا اكتفوا في مرحلة أولى بما أوجبه الشرع من واجبات مالية، وهذا ما يبدو من كلام المؤرخين بأن عبد الله بن ياسين لما دخل مدينة سجلماسة "... أزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه ..."،[١] كما أنه لما فتح بلاد السوس كان مما أمر به عماله أخذ الزكوات والأعشار، وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة.[٢] ولم يتعد يوسف بن تاشفين حدود ما أوجبه الشرع من زكوات وأعشار وجزية ... حيث "لم يوجد في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا من أمر الله تعالى به أوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين ..."،[٣] بل إن إبن أبي زرع عمم هذا الإقتصار على الواجبات المالية والشرعية على كل أيام الحكم المرابطي، إذ قال : "... لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة ... ولم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة وتقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر ..."،[٤] وهذا غير صحيح، فقد فرضوا "القبالة على كل شيء يباع دق أو جل"،[٥] كما "كانت أكثر الصنع... متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان

---

[١]- **القرطاس**، ص.١٦٢/ **الإستقصا**، ج.II، ص.١٧٢/ وانظر كذلك **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٤.

[٢]- **القرطاس**، ص.١٦٣/ **الإستقصا**، ج.II، ص.١٧٣.

[٣]- **القرطاس**، ص.١٧٣/ **الإستقصا**، ج.٢، ص.٢٣١-٢٣٢، لكن-وعلى العكس من ذلك- أشار ذ.حسن حافظي علوي في مقال **قيم إلى أن يوسف بن تاشفين فرض ضرائب غير شرعية خاصة على أهل الأندلس، "كالضيافة" و"المعونة" و"الفريضة"**. (الجباية على عهد يوسف بن تاشفين، ندوة **"يوسف بن تاشفين"**، ص.٣٣٥-٣٣٦).

[٤]- **القرطاس**، ص.٢١٠.

[٥]- **الإدريسي**، ج.I، ص.٢٣٥.

والصابون والصفر والمغازل"،[١] بل وجدنا "قبالة الرحاب والقبالة على شراء الأضحية والقبالة على الأكرية".[٢]

فإذا كان بمقدور المرابطين التقيد بحدود الشرع في استخلاص الواجبات المالية في المرحلة الأولى لدولتهم، فإن ذلك راجع إلى تقلص احتياجاتهم، ثم توفر الموارد الكافية، لكن توسع سلطتهم فرض المزيد من المصاريف والأعباء، ولهذا ركزوا على استخلاص الضرائب التي تعتبر أهم مداخليهم، و"التي تجاوزت الإطار الشرعي من زكوات وأعشار إلى الإطار القهري من نائبة ومونة ومكوس وغير ذلك من المغارم المخزنية".[٣]

في سياق الحديث عن المرتكزات المالية، وإذا رجعنا إلى مرحلة الحكم الأموي للمغرب، فباستثناء فترة عمر بن عبد العزيز، فإن السياسة المالية لولاة بني أمية تميزت بالشدة والجشع والظلم، إذ بالإضافة إلى الغنائم والسبي والهدايا التي أرسلوا بها إلى الخلفاء بالمشرق، فإنهم قاموا بتخميس البربر رغم أنهم أصبحوا مسلمين، وفي هذا المضمار يقول إبن عذاري : "... ثم إن عمر بن عبد الله المرادي، عامل طنجة وما والاها، أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام. فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد. نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله ...".[٤]

---

[١]- **الإدريسي**، ج.I، ص.٢٣٥.

[٢]- حسن حافظي، "الجباية على عهد يوسف بن تاشفين"، ص.٣٣٥.

[٣]- شقير، **تطور الدولة..**، ص.٧٥.

[٤]- **البيان المغرب**، ج.I، ص.٥١-٥٢.

إذا انتقلنا إلى إمارة نكور سنجد بأن موقعها المفتوح على البحر قد أهلها للقيام بدور مهم على المستوى التجاري، إذ يذكر البكري عددا من المراسي التي كانت تدخل تحت نفوذها، كمرسى ملوية وهرك وكرط ومرسى باديس وبقوية ...[1] ونفس الأمر يمكن سحبه على باقي الإمارات. فلا شك أن بني مدرار سيستفيدون من موقع سجلماسة على باب الصحراء، وكملتقى لمحاور الطرق التجارية، حيث كان مقصدا للتجار من جميع الأنحاء، وكذلك الشأن بالنسبة للأدارسة. فالتطور المتنامي للتجارة البعيدة المدى، وخاصة مع السودان، سيوفر لكل هذه الكيانات السياسية موردا اقتصاديا مهما تستند عليه في نشاطها واستمرارها، إما عبر المساهمة التجارية أو عبر فرض الرسوم، كما اعتمدت بعض الكيانات على غنائم الحروب والجزية المفروضة على غير المسلمين.[2]

استندت سلطة الزناتيين على احتكار تجارة المغرب، واهتمت بطرق القوافل الذاهبة للجنوب منذ البداية، بل إنها استولت على واحات سجلماسة ودرعة لتشديد قبضتها على التجارة، كما احتكرت سوق الأندلس بسبب صلتها الوثيقة بالأمويين. وكانت سلع السودان تجد رواجا لا بأس به بالأندلس، لكن بعد سقوط الخلافة الأموية واضطراب الأحوال لم تعد زناتة تحصل على الأرباح التي كانت تجنيها من

---

[1]- **المغرب**، ج.II، ص.٢٧٣.

[2]- حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج.I، ص.١٢٣، ونشير إلى أن الجزية كانت فرضت على أهل الذمة منذ الفتح الإسلامي، فموسى بن نصير لما زحف على سبتة صالح أميرها يليان بعد أن أذعن للجزية، كما أنزل طارق بن زياد بطنجة لاستخلاصها من سكانها الذين ما زالوا على غير الإسلام (العبر، ج.VI، ص.٢٨٢).

قبل، فلذلك اتجهت إلى التعويض بفرض الضرائب المرتفعة على التجارة والقوافل.[١]

حينما سيطر الفاطميون على أجزاء مهمة من المغرب الأقصى، عملوا على توفير الأمن والإستقرار الضروريين للنشاط التجاري في ق.٤ هـ/ ١٠م، ولذلك شهدت مدنه رواجا تجاريا واسعا، فانتقلت البضائع والسلع بين مدنها المختلفة مثل فاس وسجلماسة وأغمات ... واستقر التجار غير المغاربة في المراكز التجارية الكبرى لاستثمار أموالهم، كما قدم التجار الروم ببضائعهم إلى الموانئ المغربية.[٢] والمهم أن هذا الرواج التجاري سيستفيد منه الفاطميون في إثبات وجودهم وتقوية هياكلهم السياسية، "فقد كان والي مدينة **سجلماسة**، المركز التجاري المهم ... يأخذ الضرائب من التجارات الداخلية والخارجية، سواء المنتقلة بين مدن المنطقة مثل **فاس** و**أغمات** والسوس، أم القادمة من نواحي إفريقية والأندلس.كما فرضت الضرائب على القوافل التجارية التي تعمل في التجارة إلى بلاد السودان، والظاهر أن القوافل المختصة بالتجارة السودانية كانت تفرض عليهم لوازم ليس في **سجلماسة** فقط".[٣]

هناك علاقة جدلية بين مدى السيطرة على المسالك التجارية وطبيعة أو قوة السلطة السياسية. ففي مرحلة الكيانات المستقلة، نجد بأن تعدد القوى السياسية ما هو إلا انعكاس لعدم قدرة كل طرف حسم هيمنته التامة على الطرق التجارية، وقطعه للشرايين المغذية لباقي الأطراف الأخرى. ولهذا لم يتمكن المرابطون من

---

[١]- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص.٢١٤.

[٢]- صباح إبراهيم الشيخلي، "النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال ق.٤هـ / ١٠م"، **التاريخ العربي**، ع.٦، ربيع ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م، ص.٣٣ وما بعدها.

[٣]- الشيخلي، "النشاط التجاري في بلاد المغرب"، ص.٦١.

القضاء على الزناتيين إلا أن فرضوا سيطرتهم على أسواق الأندلس، وتحكموا في تجارتها المتجهة نحو المغرب.[١] بل إن التوسع المرابطي اتجاه الشمال اتبع المسالك التجارية الأهم، وهذا ما يتضح إذا وجدنا أن أولى المناطق التي غزاها المرابطون وأخضعوها هي سجلماسة ودرعة،[٢] ونحن نعرف الدور الذي لعبته مدينة سجلماسة في التجارة الصحراوية، خاصة تجارة الذهب والعبيد، "ومن سجلماسة صعد الزحف اللمتوني على طول الطريق الرابط بين هذه المدينة ومدينة أغمات التي كان لها بدورها صيت تجاري ذائع. تم هذا الإنجاز الأول بقيادة أبي بكر بن عمر، ولم يحد يوسف بن تاشفين قيد أنملة عن الخطة التي رسمها سلفه حيث سار بدوره على هدى أهم خط تجاري يصل الجنوب بالشمال والشرق، وبذلك تمكن من فتح **مكناسة وفاس** ... هكذا، وانطلاقا من تصفحنا خريطة الفتح المرابطي يتضح جليا أن الأولوية أعطيت للمسالك التجارية الرئيسة وللحواضر التي تنتهي عندها. ولا يخفى أيضا أن عاصمتهم **مراكش** نفسها تشيدت على طريق تجاري".[٣]

إذن ساعدت سيطرة المرابطين على الطرق التجارية وقيامهم بدور الوسيط على تجذر الوحدة بين المجالات المغربية وتحققها، ثم انتعاش الاقتصاد وتطور وسائل الإنتاج مما دعم قاعدتهم المادية، وبالتالي قوى كيانهم السياسي، وحتم "انهيار

---

[١]- **القرطاس**، ص.١٥٩ / بولقطيب الحسين، "المجال والسلطة بالمغرب الوسيط"، **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، ع.١١-١٢، ١٩٩٠، ص.١١٢.

[٢]- ينظر مثلا : البكري، ج.II، ص.٣٥٤/ **الحلل الموشية**، ص.٢٢-٢٣ / **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٣-٢٤٤...

[٣]- بولقطيب، "المجال والسلطة"، ص.١١٣.

النموذج الأسروي القبلي كنظام سياسي لصالح المركزية السياسية التي ستتأسس انطلاقا من عملية بسط هيمنتها على مختلف الطرق التجارية".[١]

بالإضافة إلى أهمية التحكم في المسالك الكبرى لتجارة السودان، فقد اعتمد المرابطون على غنائم الحروب والفيء لتوفير نفقات السلاح والجيش، إذ لما غزا جيشهم بلاد درعة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م. استولى على خمسين ألف ناقة لأمير **سجلماسة** مسعود بن وانودين، هذا عدا أسلحة وأموال ودواب مغراوة.[٢] ولما فتح أبو بكر بن عمر **تارودانت** قاعدة سوس، "قتل بها من الروافض خلقا كثيرا ... وأخذ أموال من قتل منهم فجعلها فيئا للمرابطين"،[٣] والشيء نفسه فعله بأموال وغنائم برغواطة.[٤] كما اعتمد يوسف بن تاشفين على "غنائم المشركين"[٥] والخارجين عن سلطته. مثلا لما ثارت بعض قبائل زناتة القبلة سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢م، أرسل عليهم جيشا بقيادة محمد بن إبراهيم اللمتوني، فألحق بهم هزيمة و"قتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة".[٦]

---

[١]- بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، ط.١، ١٩٩٤، ص.٧٧.

[٢]- **القرطاس**، ص.١٦١ / **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٣-٢٤٤.

[٣]- **القرطاس**، ص.١٦٣.

[٤]- **القرطاس**، ص.١٦٩.

[٥]- **القرطاس**، ص.١٧٣.

[٦]- إبن عذاري، ج.IV، ص.٢٢.

انطلاقا من الوقائع التاريخية، نستخلص أنه بتقدم العمليات العسكرية المرابطية شمالا نمت مواردهم المالية نموا ملفتا، مما مكنهم من السيطرة على المغرب الأقصى، بل وبسط نفوذهم على جزء كبير من المغرب الأوسط، علاوة على الأندلس.[١]

جامع القول إنه لا يمكن لأي سلطة سياسية أن تحقق وجودها وتضمن سيرورتها إلا بالإستناد على بعض الأسس والمرتكزات، والتي يعد الدين والإقتصاد والعصبية أهمها على الإطلاق، فأي خلل تسرب إلى هذه الأركان الثلاثة هددها بالتراجع والضعف والإنحلال، وأتى بنيانها من القواعد![٢]

١- حافظي، "الجباية في عهد يوسف بن تاشفين"، ص.٣٤٨.

٢- ينظر مقدمة إبن خلدون، ص. ١٣٣-١٣٥، ١٤٠، ١٤٣-١٥١، ١٥٥-١٥٧ وغيرها.

obeikandl.com

المبحث الثاني : السلطة والمدينة : إشكالية بسط النفوذ والصراع السياسي

إذا كانت عظمة السلطان وقوة السلطة يرتبطان تاريخيا بالمجال المسيطر عليه وبمدى امتداد النفوذ الترابي،[1] فإن المدينة بالمقابل تعتبر فضاء لتجسيد السلطة، حيث يتحقق وجودها في أجلى صوره، ولهذا تعمل جاهدة بشتى الأساليب والمبررات لغزوها أو لإنشائها أو إحيائها. بل تبلغ العلاقة بينهما ذروتها حينما توحد هذه السلطة كيانها بكيان المدينة، فيصبح وجود وحياة إحداهما رهين بالأخرى، ولهذا فغزو قوة سياسية معينة لمدينة ما وتخريبها كان يعني القضاء على السلطة الحاكمة لها. كما أن الصراع السياسي بين أطراف السلطة أو بين سلطتين أو أكثر غالبا ما كان يدمر المدينة، ويؤثر عليها تأثيرا خطيرا وبليغا على كافة المستويات. فما هي آليات تحكم السلطة في المدينة ؟ وما هي انعكاسات التدافع السياسي عليها ؟

هذا ما سنعمل على معالجته من خلال النقطتين الآتيتين :

أولا : آليات التحكم وبسط النفوذ

ثانيا : الصراع السياسي وانعكاساته على المدينة

---

[1]- محمد گلاوي، **المجتمع والسلطة: دراسة في إشكالية التكوين التاريخي والسياسي للمؤسسات والوقائع الإجتماعية**، النجاح الجديدة، البيضاء، ط.١، ١٩٩٥، ص.٩٦.

أولا : آليات التحكم وبسط النفوذ

*****

للمدينة بعد سياسي يرتبط بضرورة وجود السلطة الحاكمة فيها، والتي ينتظم بها أمرها، بل إن "المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون ... فلابد من تمصير واختطاط المدن من الدولة والملك".[١] وبالمقابل فإن حضور السلطة لا يتحقق بصفة أوضح إلا من خلال المدينة، فـ"الملك يدعو إلى نزول الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال، واستكمال ما كان ناقصا في البدو، والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين".[٢] فالسلطة تحتاج إلى المدينة للتحكم في المجال، ولإثبات وجودها وتحقيق مشروعها السياسي والمذهبي على أرض الواقع، ولهذا فإنها تحاول تشييد المباني الضخمة والأسوار العالية، بل وتعطي بعض المؤسسات العمرانية صفة القداسة ... ثم توحد بين كيانها وكيان المدينة، بحيث يصعب الفصل بين حدود مجاليهما. وكل ذلك لتسهيل عملية الخضوع والإنقياد.[٣]

تجتهد كل سلطة ناشئة في إثبات وجودها السياسي من خلال بناء مدينة أو مدن، وربما أيضا للتحصن بها من الخصوم والمناوئين. لما نقض صفريو مكناسة طاعة العرب مثلا، اختطوا مدينة سجلماسة، واقتطعوها "وأعمالها عن نظر الولاة

---

(١)- **المقدمة**، ص.٣١٧.

(٢)- **المقدمة**، ص.٣١٨.

(٣)- Toynbée, *Les villes dans l'histoire*, p.٩٤-٩٥/Mumford, *la cité à travers l'histoire*, p.٥٤-٦٣.

بالقيروان"،[١] وأكثر الأدارسة من بناء المدن لفرض سلطتهم على المجال، ولدمج العناصر القبلية تحت نفوذهم. ولما "استفحل" أمر زيري بن عطية وقوي، "دفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا"،[٢] و"بنى مدينة وجدة، وشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها. وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره"،[٣] و"أعدها معتصما".[٤] ولما قويت شوكة المرابطون سيطروا على المدن المغربية تباعا، وشيدوا مدنا أخرى أبرزها قاعدتهم الكبرى مراكش.

يعبر توسع السلطة المجالي بشكل طبيعي عن نموها وتطورها، وعن مدى قوتها وسطوتها، وقد كانت المدينة هدفا وأداة لهذا التوسع، وكان يتم غزوها وإخضاعها تحت مصوغات شرعية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء على المغارم غير الواردة في الكتاب والسنة. ولهذا كان من أولى أعمال إدريس الأول إعداد جيش قوي من بعض القبائل الموالية كزناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة ... وقيادة التوسعات العسكرية باسم العمل على نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، فمعظم بلاد المغرب كانت على دين النصرانية واليهودية والمجوسية.[٥] ولما وصل أتباع الشيخ عبد الله بن ياسين الألف، أمرهم بـ"القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه ... فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة ...".[٦] ولما بسط المرابطون سيطرتهم على

---

[١]- **الإستقصا**، ج.I، ص.١٦٩.

[٢]- **العبر**، ج.VII، ص.٤٣.

[٣]- **القرطاس**، ص.١٣١.

[٤]- **العبر**، ج.VII، ص.٤٣.

[٥]- **القرطاس**، ص.٢٤.

[٦]- **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٣.

الصحراء اتجهت أنظارهم إلى المال لوضع حد للمظالم التي كانت منتشرة بالمغرب، ولهذا حينما استولى عبد الله بن ياسين على سجلماسة أذن بتدمير أماكن اللهو وتكسير آلات الطرب، وأزال المغارم والمكوس التي فرضها أمراء مغراوة.[١]

من جهة أخرى فإن القضاء على المدينة يعني القضاء على سلطتها الحاكمة، فالمرابطون لما أرادوا إرغام البرغواطيين على تصحيح إسلامهم، والحيلولة دون حفاظهم على استقلالهم خارج الوحدة الإسلامية، خربوا أربعين مدينة أو مركزا عمرانيا.[٢] وللقضاء على سلطة بني صالح التي رفضت الدخول في طاعة المرابطين، قام يوسف بن تاشفين بتخريب قاعدتهم نكور "فلم تعمر بعده".[٣]

لا يمكن أن يتحقق حضور السلطة السياسي بالمجال إلا بالهيمنة على المراكز العمرانية المهمة على الأقل، فزيري بن عطية مثلا، "لما ملك مدينة فاس استقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه"،[٤] ولهذا عملت كل القوى السياسية الفاعلة، في مختلف المراحل، على اعتماد شتى الخطط والوسائل لإخضاع المدن والمراكز العمرانية. فيوسف بن تاشفين قام بفتح العديد من مدن الشمال ومناطقها قبل الفتح النهائي لمدينة فاس، كأنما أراد أن يزيح من أمامه كل ما يمكن

---

[١]- القرطاس، ص.١٦٢.

[٢]- مولود عشاق، حركة المتنبئين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، الأحمدي للنشر، البيضاء، ط.١، ١٩٩٩، ص.٥١.

[٣]- العبر، ج.VI، ص.٢٤٧.

[٤]- القرطاس، ص.١٢٨.

أن يفشل دخولها، ولتبقى معزولة عن أي إغاثة ممكنة[١]. ونظرا لعدم تمكن المرابطين من السيطرة على سبتة بفعل موقعها المحصن وقوتها البحرية، فقد اضطروا إلى الاستعانة بالأساطيل التي أرسلها لهم إبن عباد، والتي حاصرت المدينة بحرا، في حين هاجمها جيش إبن تاشفين برا، ونجح في اقتحامها وضمها إلى النفوذ الصنهاجي.[٢]

عموما فقد اتخذت السلطات الناشئة الغازية كل الإستراتيجيات والإجراءات لبسط نفوذها على المدن، والتي تميزت بالقسوة والعنف والإقصاء في أغلب الأحيان، حيث تهدف من وراء ذلك إلى "تمهيد البلاد" وجعلها واطئة وسهلة العبور والمراقبة. فالعلاقة بين السلطة والمدينة تعتمد على اختراق الأولى لبنية الثانية العمرانية والإجتماعية ... عبر قوة الجيش ثم قسوة الجباية، وذلك من أجل تسهيل عملية الدمج والصهر، والطاعة والخدمة والولاء، وكأن هذه السلطة تجعل من إضعاف القوى السياسية والإجتماعية وسيلة لتقوية مركزها وموقعها، بل تعمد إلى استعمال كل أنواع العنف من قتل وتخريب وقمع كإجراء استراتيجي لفرض السيطرة والسيادة والإخضاع على المدينة، التي تصبح بمثابة المجال الأمثل لحياتها وبقائها وتجذرها. لكن "قيام السلطة استنادا على القوة البحتة وحدها شيء، واستقرار السلطة ودوامها شيء آخر. إن القوة إذا وجدت دون رضا المحكومين ستكون مزعزعة وغير مستقرة، وحتى تتهيأ لهذه القوة فرصة الدوام والإستقرار

---

[١]- الياقوت شقرون، فاس والأزمة في العصر الوسيط، د.د.ع. المعمقة في التاريخ، كلية الآداب-سايس، فاس، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص.١٧.

[٢]- العبر،ج.VI، ص.٢٩٦.

يجب أن يقوم بجوارها قوة أخرى ... القوة المعنوية"،[١] وذلك بأن تنسب إلى الحكام صفات أخلاقية معينة، أو إضفاء الهيبة والتقديس لأشخاصهم وانفرادهم "بالمجد" واحتمائهم بمبادئ الشرف والعقيدة والدين.[٢] والمهم أن أصحاب القرار في العصبيات الحاكمة يبذلون أقصى جهدهم لتثبيت هيمنتهم وترسيخ نفوذهم وتعميقه عبر كل الآليات الممكنة والمتاحة، مثلا "فالمناصب هي ألقاب سياسية يوزعها الذين في السلطة على أفراد تم اختيارهم لأنهم يمكن أن يكونوا مفتاحا لقاعدة قوة شعبية معينة. وتدعم هذه المناصب من أعلى بالقوة المادية للسلطة السياسية".[٣]

رغم قلة المعلومات، فبعودتنا إلى الأدبيات التاريخية نستطيع أن نستشف بعض أهم وسائل التحكم السياسي في المجال، وخاصة الحضري منه، والتي من بينها نجد :

- **ذاتية الحاكم** : إن "الميل لدى الحكام إلى إضافة المكانة والمهابة الفرديتين المرتبطتين بالزعامة إلى سلطتهم بالمعنى الحصري للكلمة يدعى "شخصنة السلطة"،[٤] ولذلك قيل: "السلطة منذ فجرها تظهر في صورة رجل"،[٥] مما يسمح

---

[١]- عبد الله ناصف، **السلطة السياسية: ضرورتها وطبيعتها**، دار النهضة العربية، القاهرة، ص.١٣٠.

[٢]- ينظر ذلك بتفصيل عند الحديث عن المرتكزات الدينية للسلطة بالمغرب، ضمن المبحث الأول من الفصل نفسه/ إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١١٥ وما بعدها.

[٣]- فريد صقري، "الحكام والمحكومون: إبن خلدون وتناقضات المجتمع المتمدن"، **الفكر العربي المعاصر**، ع.١٧، ١٩٨٢، ص.٥٦.

[٤]- موريس دوفرجيه، **علم اجتماع السياسة**، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.١، ١٩٩١، ص.١٣٩.

للحاكم بإصدار الأوامر والقرارات الإجبارية الحاسمة التي لا معقب لها ولا راد لا السمع والطاعة والتنفيذ !

تحتاج مؤسسات وأجهزة القهر والتحكم في اشتغالها دوما إلى حاكم يحركها عبر قوته الذاتية، المتولدة عن ملكاته وقدراته الشخصية التي يتمتع بها، والتي تبرز مدى حسن تصريفه لشؤون الحكم. لذلك فإن مقدار عظمة السلطة مرتبط بمدى قدرة وأهلية الحاكم،[٢] وما يمتلكه من خصائص فكرية وأخلاقية وعملية، وكمثال فقد أعطى يوسف بن تاشفين قوة أكبر لدولة المرابطين بما توفر عليه من عمق فهم للأمور وكفاءة في إدارة المواقف والتحكم في مسارات الأحداث، ولذلك فإن هذا الزعيم "الذي حرص على تنفيذ المشروع المرابطي بشقيه الجهادي والإصلاحي، يعتبر تركيبا سياسيا لرواد الحركة المرابطية الأوائل، أي لأبي بكر بن عمر وعبد الله ابن ياسين والشيخ وكاك بن زلو، فنجد في شخصية يوسف الحرص التشريعي لإبن ياسين والعمق المنقبي لوكاك، وأخيرا الطموح العسكري والجهادي لأبي بكر بن عمر".[٣]

لكن الحاكم ليس بالضرورة أن تكون له قدرات شخصية وتدبيرية، إذ أن سلطته وراثية. فعلي بن يوسف رغم صلاحه وتدينه وأخلاقه الحميدة،[٤] إلا أنه من

---

[٢]- ناصف، **السلطة السياسية**، ص.١٢٩.

[٣]- ناصف، **السلطة السياسية**، ص.١٢٨-١٢٩.

[٤]- عمر بنميرة، "فتاوى سياسية من العصر المرابطي: قضية استنزال ملوك الطوائف"، ضمن ندوة **يوسف بن تاشفين**، ص.٣٨.

[٤]- يقول المراكشي : "... كان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس، بعيدا عن الظلم، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين ..." (**المعجب**، ص.١٢١).

الناحية السياسية كان ضعيفا وغير قادر على تسيير شؤون الحكم، وفي هذا الإطار يقول صاحب "المعجب" : "واختلت حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسمائة اختلالا شديدا، فظهر في بلاده مناكركثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي (إبن يوسف) ... وأحق بالأمر منه ..! وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم "إمرة المسلمين"، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل. فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهرا عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال...".[١]

بالإضافة إلى بعض الأخلاق الحميدة المطلوب توفرها في الحاكم، كالكرم والضيافة والصبر... فإن السياسة تقتضي أن ينفرد بالمجد، وهو ما لا يتحقق إلا بالكبر والأنفة والأبهة...[٢] "فلأجل أن يمارس الحاكم قيادة سياسية ويفرض طاعة الناس له، تتطلب السلطة مقدارا أكثر من الإعتيادي من التأثير النفسي (معاناة القلوب) وبكلمة أخرى، برغم أن احتمال استعمال القوة القاسية هو موجود دائما إلا أن هذا لا يعني وجوب أن تأتي طاعة الشعب دائما بسبب الخوف، بل يجب أن يقتنع الشعب بشرعية الحاكم".[٣]

- **الوزراء** : وهم الذين يعينون الحاكم على حمل أثقال سياسة الملك، وتدبير أمور الرعية بما يخدم مصالحهم العامة دون خلل أو زلل ما أمكن، ومنصب الوزارة لم يكن كما نفهمه بالمفهوم المعاصر، بل إن الوزراء هم أقرب إلى المستشارين. يروي

---

[١]- **المعجب**، ص.١٢٥-١٢٦.

[٢]- صقري، "الحكام والمحكومون"، ص.٥٤.

[٣]- صقري، "الحكام والمحكومون"، ص.٥٤.

صاحب القرطاس أن إدريس الثاني لما انهالت عليه وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس، سر بهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفع مكانتهم وجعل منهم بطانته دون البربر ... وهكذا استوزر عمير بن مصعب الأزدي المعروف بالملجوم الذي كان من سادة العرب وفرسانها.[١] كما وصف عدد من الفقهاء في المرحلة المرابطية بالمشاورين.[٢]

- **الكتاب** : وظيفة الكتابة "غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة"،[٣] ولهذا لم نسمع عنها عند بني صالح وبني مدرار مثلا، وبالمقابل فقد وجدت عند الأدرسة والمرابطين، إذ يذكر أن إدريس الثاني عين أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي كاتبا له، ومن المهام التي كلفه بها كتابة عقد شراء الموضع الذي بنيت فيه مدينة فاس من مالكيه،[٤] وكان أبو الحسن يمتلك ثقافة غزيرة وفهما بليغا وقام بالأمر خير قيام.[٥]

وقد يكون من الطبيعي أن يكون لدولة المرابطين التي ترامت أطرافها ديوانا للرسائل والمكاتبات، يربط بين الأمير وولاته، سواء في الأقاليم والمدن المغربية

---

[١]- إبن أبي زرع، ص.٣٥.

[٢]- عمر بن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، شهادة التعمق في البحث،كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس،١٩٨٧، ج.I، ص.١٥٦.

[٣]- **المقدمة**، ص.٢٢٦.

[٤]- الجزنائي، ص.١٩/ العبر، جIV، ص١٣.

[٥]- سعدون نصر الله عباس، **دولة الأدارسة في المغرب: العصر الذهبي (١٧٢-٦٦٣ هـ/ ٧٨٨-٨٣٥م)**، دار النهضة العربية، بيروت، ط.١، ١٩٨٧، ص.١٢٤.

والأندلسية، أو بينه وبين بعض القوى السياسية الخارجية.[١] كما أن السلطة المرابطية كانت محتاجة دوما للكتابة نظرا لضرورتها في "توجيه الأمر للرعية، وبعث الرسائل للملوك، والسهر على قوائم المستحقين للخراج والجزية ومختلف الجبايات ... ونقل أخبار المعارك والجهاد عبر المراسلات".[٢]

- **الولاة والعمال** : تمتعوا بسلطات شبه مطلقة، ولم تتدخل السلطة "المركزية" إلا استثناء، ومع ذلك كان الحكام "يراقبون عمالهم مراقبة دقيقة مخافة أن يستبدوا بالأمر أو يسيئوا السيرة، كما كانوا يتعرفون على أحوالهم عن كثب، عن طريق تفقد أموال الدولة، ومعرفة أحوال وأوضاع سكان البلاد وصلتهم بعمالهم ويهتمون بتوجيههم"،[٣] فيوسف بن تاشفين كان يراقب عماله، ولا يترك لهم قرارا بإقليم أو ولاية معينة، بل يعرضهم للنقل من جهة إلى أخرى.[٤] وقد كان للولاة والعمال حق التصرف الكامل في عزل وتعيين من دونهم من الموظفين ورجال السلطة، وكانت مهمتهم عسكرية بالدرجة الأولى، فهم الذين يقودون الحروب ويقمعون التمردات والفتن.[٥] وقد كانوا يعينون من الأسرة والعصبية الحاكمة، فمحمد بن إدريس قسم

---

[١]- عبد المنعم محمد حسين حمدي، **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين : دولة علي بن يوسف المرابطي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص.٢٧٠-٢٧١.

[٢]- بوتشيش، **مباحث في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، بيروت، ط.١، ١٩٩٨، ص.١٣٨.

[٣]- غازي سعيد جرادة، **الحياة الإقتصادية والإجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب-الرباط، ١٩٩١، ص.٨١.

[٤]- الصلابي، **الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين**، ص.١٦٩.

[٥]- حسين مؤنس، **الثغر الأعلى في عهد المرابطين**، ص.٢٧، نقلا عن محمد على الصلابي، **الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين** ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط.١، ٢٠٠٣، ص.١٦٨.

مملكته على إخوته عمالا عليها، واختار يوسف بن تاشفين ولاة الأقاليم من عصبية صنهاجة وخاصة قبيلة لمتونة.

- **الجيش** : تعتبر القوة العسكرية الأداة الأكثر ضرورة لتوطيد السبل أمام سيادة سلطة معينة، فقد لعب الجيش دورا رياديا في تثبيت حكم الفاتحين، واشتهرت مجموعة من القادة الكبار أمثال عقبة بن نافع الفهري وحسان بن النعمان وموسى بن نصير الذي استكمل أعمال الفتح. وجمع الحكام بين إدارة الدولة وقيادة الجيش، سواء خلال عصر الدول المستقلة أو عصر المرابطين.

اشتركت مختلف عناصر القبائل العربية في فتوحات المغرب، وشكلوا الغالبية العظمى لجيوشها، فحملة عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ تكونت من عشرة آلاف مقاتل، وكون بعض الأمازيغ من قبيلة "لواتة" شطرا من هذه الجيوش،[١] وفي عهد الدول المستقلة وقع تغير ملموس في بنية الجيش، حيث أصبحت العصبيات المؤسسة لهذه الدول تقوم بالدور الرئيس، ذلك لأنه بجهد ونشاط هذه العصبيات القبلية نشأت وتوسعت وانتقلت سلطتهم من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة.[٢] فإدريس الأول أسس جيشا من القبائل التي بايعته كزناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم،[٣] أما إدريس الثاني فوفدت عليه وفود من عرب إفريقية والأندلس سنة ١٨٩هـ، ومن

١- المنظمة العربية للتنمية الإدارية، جامعة الدول العربية، **موسوعة الإدارة العربية الإسلامية**، المجلدIII، ص.٧٨.

٢- المنظمة العربية..، **موسوعة الإدارة**..، المجلد III، ص.٧٨.

٣- **القرطاس**، ص.٢٤.

ضمنهم نحو خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومدحج وبني يحصب والصفد وغيرهم.[١]

واعتمد المرابطون في تكوين جيشهم على قبائل صنهاجة التي ضمت مجموعة كبيرة من القبائل بلغت السبعين قبيلة، وبعض القبائل العربية التي عاشت بالمنطقة منذ الفتح الإسلامي واختلطت بسكانها، ثم السودانيون الذين استخدمهم المرابطون في جيوشهم وتنظيماتهم العسكرية، وأصبحوا يكونون فرقة من فرق الجيش،[٢] الذي كان قليل الخبرة بفن الحصار رغم بسالته المشهودة في المعارك الحربية، ويرجع أشباخ الأمر إلى أن "دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان، وهم أقل براعة في فنون الحصار".[٣] ولهذا حين "رتب يوسف بن تاشفين الأجناد" عمل على إنشاء قوة عسكرية بحرية، "فقد أدركوا لأول وهلة أهمية القوة البحرية، وذلك منذ شرعوا في فتوحاتهم في المغرب الأقصى بأكمله، وأن يتقدموا إلى السواحل الشمالية المطلة على البحر مثل **سبتة وطنجة**، وكانتا خاضعتين لإمارة بحرية قوية، وهي إمارة سقوت البرغواطي".[٤]

– **القضاء** : يعد القضاء أحد وسائل ترسيخ حضور السلطة وتوطيد الأمن وحل الخلافات وتحقيق السلم الإجتماعي، ولهذا كانت الإمارات والدول على مر تاريخ المغرب تختار القاضي من كبار العلماء وأولي الرأي والفقه والعدل. فإدريس الثاني استقضى عامر بن محمد بن سعيد القيسي المعروف بورعه وصلاحه وسماعه

---

[١]– الجزنائي، ص.١٧-١٨/ **القرطاس**، ص.٧٨.

[٢]– **موسوعة الإدارة العربية الإسلامية**، ص.٨٢-٨٣.

[٣]– **تاريخ الأندلس**، ص.٤٨٨، نقلا عن عبد المنعم حمدي، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص.٣٠٢.

[٤]– حمدي ، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص.٣٠٤-٣٠٥.

وروايته عن الإمام مالك بن أنس وسفيان الثوري.[١] وكان المرابطون يعينون لمنصب القضاء علماء المالكية المرموقين كموسى بن حماد الصنهاجي الذي تولى القضاء بمراكش وإبن الملجوم بفاس وعياض بن موسى بسبتة وعبد الله بن إسماعيل بأغمات، ولم تتدخل مسألة القرابة القبلية في هذا التعيين، كما هو الشأن بالنسبة للولاة والعمال، إذ كان أغلب القضاة غير صنهاجيين. وتميز القضاء بالإستقلالية النسبية، إذ تم الفصل بين السلطة الإدارية والسلطة القضائية إلى حد ما، وبموجب ذلك تمتع القاضي بهيبة وحرية واسعة في تنفيذ الأحكام التي يراها مناسبة وفق المذهب المالكي.[٢] وكانت رئاسة القضاء في المغرب تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة"،[٣] وقضاء الجماعة خطة فرضها الدور الذي تقوم به هذه المدينة كحاضرة للدولة، وهو لقب ظهر بالمغرب أول مرة مع المرابطين فيما يعتقد.[٤] و"من الأمور التي تستوقفنا كثيرا عند قاضي الجماعة بمراكش هو عدم بروز هذه الشخصية كثيرا في تاريخ الدولة المرابطية. فنحن لم نهتد سوى إلى إسمين فقط، نحن متأكدون أن صاحبيهما توليا خطة قضاء الجماعة بمراكش، وهما إبن ملجوم المذكور، وأبو محمد بن منصور".[٥] ويتبين عبر بعض المحطات أن قاضي الجماعة تدخل في تعيين بعض قضاة مدن مغربية **كسبتة وسلا**.[٦] وبناء على تأكيد المصادر على وجود قضاة بأغمات **وطنجة وتلمسان وفاس** إضافة إلى

---

[١]- **القرطاس**، ص.٣٥.

[٢]- غازي سعيد، **الحياة الإقتصادية والاجتماعية في العهد المرابطي بالمغرب**، ص.٧٦.

[٣]- حمدي ، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص.٢٨٧.

[٤]- إبن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، ج.I، ص.١٧١.

[٥]- إبن حمادي، **الفقهاء..**، ج. .I، ص.١٧١.

[٦]- إبن حمادي، **الفقهاء..**، ج.I ، ص.١٧٣.

المدينتين السابقتين، يمكن القول بأن الإكثار من مراكز القضاء قد يكون من مستجدات المرابطين.[١]

اشتغل القضاة بمهام عادية مثل فض النزاعات وقطع المشاجرات والخصومات وإقامة الحدود والإشراف على أموال اليتامى وتسوية المواريث إلخ... ولا يعرف إن كانوا هم الذين يقومون بتعيين المحتسب أم لا.[٢] ولا ندري هل جمعوا بين خطة القضاء والمظالم أم لا. لكن "يبدو أن المرابطين لم يجعلوا "المظالم" خطة مستقلة، كما أننا لم نعثر على ما يفيد ممارستهم لها بأنفسهم، لذلك نرى أن الإحتمال الأقرب، هو أن تكون هذه الخطة قد أوكلت إلى قضاة هذا العصر، مع عدم استبعاد جلوس الأمير لممارستها أحيان".[٣]

– **الحسبة** : وهي "الأمر والنهي وتغيير المنكر في المشاكل اليومية الواضحة التي لا يتنازع فيها والتي لا تحتاج إلى حلف يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود، فهذه كلها من اختصاص القاضي، ولا دخل للمحتسب فيها، أما التعزيرات أو الأحكام التأديبية السريعة فهي من اختصاص المحتسب".[٤] وقد ظهرت مؤسسة الحسبة بالمشرق بداية، وكانت تابعة في غالب الأحيان لولي الأمر مباشرة، بينما جعلها فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي تابعة لولاية القضاء، "بمعنى أن ما ينظر فيه المحتسب هو بحسب الأصل من مشمولات اختصاص القاضي، والمحتسب نائب عنه لا عن الإمام، وبهذا الاعتبار نص المالكية على أن القاضي يولي من ينظر في الحسبة لمراقبة

---

[١]– إبن حمادي، **الفقهاء..**، ج. .I، ص.١٧٤.

[٢]– إبن حمادي، **الفقهاء..**، ج. .I، ص.١٧٤ وما بعدها.

[٣]– إبن حمادي، **الفقهاء..**، ج.I، ص.١٨٦.

[٤]– أحمد مختار العبادي، "من مظاهر الحياة الإقتصادية في المدينة الإسلامية"، ص.١٥٨-١٥٩.

أحوال السوق وما يجري فيها"،[١] وقد عدد الفقهاء تسعة عشر مهمة للمحتسب يتعلق أغلبها بأمر الأسواق والتجارة والحرف ...[٢] يستعين في أداها بعرفاء الحرف ويتخذ له مساعدين في ذلك.[٣]

رغم ذهاب هوبكنز[٤] إلى أن المغرب كان متأخرا عن الأندلس بمراحل كثيرة على مستوى النظم الإدارية، وبالتالي يجب التحفظ على وجود نظام الحسبة بالمغرب خلال الفترة المدروسة، فإنه مع ذلك يستبعد جدا ألا يتأثر بتلك النظم سواء السائدة بالأندلس أم بإفريقية، ومنها بالطبع خطة الحسبة.[٥] فقد قامت دولة المرابطين على أساس الحسبة بمفهومها العام، إذ أن عبد الله بن ياسين قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى النهج نفسه سار زعماء المرابطين. لكن إذا تعددت الروايات التاريخية حول الحسبة بمفهومها العام عند بداية الدولة المرابطية، فإنها لم ترد بالحجم والوضوح نفسه عندما يتعلق الأمر بالحسبة كتنظيم. نجد بعض الإشارات التاريخية التي قد توحي بوجودها كتنظيم في أسواق مدينة فاس من طرف يوسف بن تاشفين.[٦] ويذكر السقطي المالقي عن محتسب سبتة أمورا تتعلق بمراقبة السفن

١- عبد القادر العافية، "السوق في المدينة الإسلامية"، مجلة كلية الشريعة، ع.٢١، ١٤١٧هـ، ص.٣٥٠.

٢- العافية، "السوق في المدينة الإسلامية"، ص.٣٥٠-٣٥١.

٣- **المقدمة**، ص.٢٠٨.

٤- هوبكنز ج.ف.ب، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء، ط.٢، ١٩٩٩، ص.١٧٧.

٥- بزاوي، **المدن والتجارة..**، ج.II، ص.٣٦٠.

٦- يذكر إبن أبي زرع (**القرطاس**، ص. ١٧٩) أن يوسف بن تاشفين لما دخل مدينة فاس " أصلح أسواقها".

واختيار أحباها وآلاتها مما لا يترك أدنى شك عن وجود الحسبة بهذه المدينة لمراقبة السفن.[١]

خلاصة القول أن الحسبة بمفهومها الخاص، وإن كانت لم توجد بصورة واضحة قبل دولة المرابطين، يظهر أنها قد وجدت كنظام في عهدهم، خاصة وأن هؤلاء قد اهتموا بالدين وتغيير المنكرات، وكذلك بمشورة الفقهاء وتقدير القضاء.

– **الفقهاء :** يحتل الفقهاء موقعا مركزيا في الإسلام والحضارة الإسلامية، إذ هم المبلغون لأحكام الدين والمعلمون لمبادئه، ويمكن أن يشكلوا قناة بين الحكام والمحكومين، ولهذا يعدون من أخطر الوسائل التي تعتمدها السلطة في التدبير العام. فقد اعتمد الأدارسة على علماء وفقهاء المذهب السني المالكي كعامر بن محمد بن سعيد القيسي الذي تتلمذ على الإمام مالك والثوري.[٢] وبلغ الإعتماد على الفقهاء ذروته مع المرابطين، إذ أن دعوتهم أصلا نظر لها الفقهاء منذ البداية، ودولتهم رسمت محاور سياستها الكبرى بتوجيه من الفقهاء، بل هم الذين ساهموا بقوة في إنجاح توسعات حركة المرابطين، وشاركوا في إرساء القواعد المتينة لدولتهم وتدعيم نسبهم، وسعوا إلى خلق تقاليد سياسية تخدم أصحاب الملك.[٣] "إنه مما لا شك فيه أن المرابطين عملوا، ككل الأنظمة، على توظيف الفقهاء ورجال العلم، إلى جانب العناصر الإجتماعية الأخرى المؤثرة، وجعلهم في خدمة الدولة. غير أننا نعتقد أن المرابطين تجاوزوا هذه الظاهرة "العادية" ليجعلوا من الفقهاء ركنا أساسيا في سياستهم وركيزة يقوم عليها النظام ... يبدو لنا أن الاعتماد عليهم ظهر كذلك

---

(١)– السقطي، **في آداب الحسبة**، ص.٧١، نقلا عن بزاوي، **المدن والتجارة..**، ج.II، ص.٣٦١.

(٢)– **القرطاس**،ص.٣٥.

(٣)– إبن حمادي، **الفقهاء**،ج.I،ص.١٢٩–١٣١.

كحل لمعالجة نقط ضعف كبيرة عانت منها الدولة منذ أن أخذت في تركيز هياكلها، وهو مشكل ما يمكن تسميته بالضعف العددي للمرابطين الصحراويين أمام متطلبات مملكة أصبحت شاسعة، مما سيدفعهم إلى انتهاج أسلوب معين في التعامل مع رعاياهم، أسند للفقهاء، في اعتقادنا، دورا هاما في تطبيقه...".[١]

في سياق الحديث عن الآليات والوسائل التي لجأت إليها السلطة للتحكم في المجال وتدبير الشأن العام، وبالإضافة إلى ما ذكرنا سابقا، نجد آليات أخرى كالشرطة التي كان دورها حراسة المدن والأسواق والبوابات بالليل، ومساعدة حاكم المدينة على حفظ الأمن والنظام، وحراسته وتنفيذ أوامره.[٢] وإذا كان صاحب الشرطة يتغير بتغير الحاكم، فإن الجابي كان أكثر عمال الدولة ثباتا لمعرفتهم بالناس والضرائب[٣].

على العموم، تعتمد السلطة كل الوسائل والأساليب المادية والمعنوية التي تراها مناسبة وجديرة بتحقيق غايتها في التحكم وبسط النفوذ على المجال وتدبيره، لكن أي خلل أو ضعف تسرب إلى هذه الوسائل ينعكس تأثيره سلبا على قوة السلطة، وقد يفقدها تماسكها وانسجامها، فتظهر مراكز جذب من الداخل، أو تبرز قوى سياسية أخرى جديدة وناشئة تحاول استغلال هذا الضعف وتكريسه بتوجيه سهمها إلى السلطة الحاكمة التي بدأت تهرم وتشيخ، ولهذا تبدأ مرحلة جديدة تطبعها كثرة الصراعات وتفاقمها.

---

[١]- إبن حمادي، **الفقهاء**،ج.II،ص.٥٨٨-٥٨٩.

[٢]- غازي سعيد، **الحياة الإقتصادية والإجتماعية** ..، ص.٧٨.

[٣]- شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام**، ج.II، ص.٥٤٠، نقلا عن غازي، **الحياة الإقتصادية والإجتماعية**..، ص.٨١.

ثانيا : الصراع السياسي وانعكاساته على المدينة

*****

تشكل مسألة الصراع السياسي ظاهرة أساس خلال المرحلة المدروسة، ذلك لأن هذا الصراع لا يلبث أن يحسم بتغلب عصبية على أخرى، حتى يتحول إلى تنافس بين أطراف العصبية المنتصرة الحاكمة نفسها. وتساهم العوامل المذهبية والقبلية والطموحات السياسية والاقتصادية في تأجيج الصراعات واستمرارها، والتي تنعكس على المدينة بالسلب عموما. فما هي مظاهر هذا الصراع ؟ وما انعكاساته ؟

رغم ضعف المعلومات المتوفرة، نقول بأن الفتح الإسلامي للمغرب ماكان ليتم دون وقوع صدامات سواء بين بعض قادة الفاتحين وقبائلهم، أو بينهم وبين السكان المحليين، أضف إلى هذا أن سياسة الأمويين كانت جائرة لا تنسجم مع دعوة الإسلام وقيمه ومبادئه الإنسانية، فأشعلت ثورات خارجية بالأساس، ونتج عنها قيام كيانات سياسية مستقلة من أبرزها دولة بربر مكناسة الصفرية سنة ١٤٠هـ، والتي لم تسلم من الصراعات الداخلية والخارجية منذ بدايتها، مثلها في ذلك مثل باقي القوى السياسية الأخرى المعاصرة لها.

تبعا للإشارة إلى الصراع الداخلي نجد أن أول من تربع على عرش سلطة بني مدرار هو عيسى بن يزيد الأسود، لكن سرعان ما انقلبت عليه قبيلة مكناسة حينما صارت أقوى العصبيات، وبايعت زعيمها أبا القاسم سمكو المكناسي. ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا عيسى "وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس الجبل وتركوه كذلك حتى

قتله البعوض".[١] تحت مبرر نقمتهم عليه بعدما أنكروا عليه كثيرا من الأشياء في أحواله.[٢] وفي عهد المنتصر بن اليسع تنازع إبناه ميمون بن أورى بنت عبد الرحمان بن رستم وميمون بن ثقية، وذلك لثلاثة أعوام، ورغم أن المنتصر الملقب بمدرار كان يؤثر إبن الرستمية فولاه، إلا أن صفرية سجلماسة ثاروا عليه وقدموا عليهم الأمير إبن ثقية.[٣]

اجتاحت موجة الإضطرابات والمنافسات الداخلية إمارة نكور أيضا، خاصة في عهد صالح بن سعيد، فقد نازع إدريس أخاه صالحا بن سعيد على تولي مقاليد السلطة، وساندته في ذلك قبائل بني ورياغل وكزناية،[٤] التي اجتمعت في كتلة معارضة، وتحصنت بجبل كزناية المعروف بـ"كوين" بالحوض الأعلى لوادي نكور، وطمحت إلى التحكم في السلطة باعتبارها تمثل قوتها وركنها البشري، وبقيادة إدريس لهذه الحركة المعارضة يكون قد فتح مرحلة من الإضطراب والصراع السياسي داخل البيت الحاكم.[٥]

انهزم صالح ونهب معسكره، ولما أراد أخوه إدريس دخول المدينة منعه خليفة صالح عليها، فقال له : "إن صالحا قد قتل"، فقال : "إذا صح عندي ذلك لم أدافعك"، فنزل بجيشه على جبل مطل على نكور، وبالمقابل تمكن صالح بن سعيد من التسلل في جوف الليل إلى المدينة مع خاصة أصحابه لمعاودة الإمساك بزمام

١- البكري، المسالك، ج.II، ص.٣٣٥ / وينظر كذلك : العبر، ج.VI ، ص.١٧٢.

٢- البكري، ج.II، ص.٣٣٤/ العبر، ج.VI، ص.١٧٢.

٣- البكري، ج.II، ص.٣٣٥.

٤- البكري، ج.II، ص.٢٧٦.

٥- البكري، ج.II، ص.٢٧٦/ أحمد الطاهري، إمارة بني صالح في بلاد نكور، ص.٦٣.

المبادرة والعمل على الإيقاع بخصمه في الشباك. وفي صباح اليوم التالي سمح لإدريس بالدخول، وهو على فرسه مدرعا لا يعلم أمر أخيه ومكره، وسرعان ما أرجله فتيان الأمير وجاءوا به إلى صالح الذي أمر بحبسه في قصره، ثم أمر أحد فتيانه وخدامه المقربين يسمى "عسلون" بقتله ففعل.[١]

إن في هذه الأحداث - كما يشير ذ. الطاهري- ما يكشف عن إرهاصات الضعف والوهن الذي بدأ يدب إلى قمة السلطة، التي لم تعد قادرة على التحكم المتين في مقاليد مجريات الأمور، كما تبين أن مركز القرار أصبح مشتتا بين مصالح وأطماع المتنفذين من قادة الجند وشيوخ القبائل، الذين فتحت في وجوههم أبواب التنافس والعراك.[٢] فالصراع بين إبني سعيد بن صالح كان باعثا على دفع عدد من القبائل إلى إعلان العصيان على السلطة الحاكمة والإمتناع عن أداء الضرائب.[٣] ورغم الحزم الذي أبداه صالح في مواجهة الثورات فإن عهد سعيد الذي كان أصغر أبنائه لم يسلم من كثرة الحروب والتمردات، إذ ثار عليه أخوه عبد الله وعمه الرضى وبعض أقاربه وبني عمومته، وتمكنوا من محاصرته حتى إنه لم يستطع أن يحاربهم إلا "من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا. وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية ... الصقالبة، فتحصنوا بها سبعة أيام، وحشد سعيد وخرج إليهم وظفر بعد حرب شديدة".[٤]

---

[١]- البكري، ج.II، ص.٢٧٦/ أحمد الطاهري، **إمارة بني صالح**، ص.٦٤-٦٥.

[٢]- **إمارة بني صالح**، ص.٦٥.

[٣]- البكري، ج.II، ص.٢٧٦.

[٤]- البكري، ج.II، ص.٢٧٧.

إن مسألة إسناد الحكم إلى سعيد أصغر أبناء صالح بن سعيد تبعث على الظن أن ثمة أطراف كانت طامعة في الإستئثار بالسلطة ولو في الخفاء، وتحريك الأمير على حسب هواها ورغباتها، وهذا الذي اتضح حينما تكتل خاصة الإمارة ورؤساء الخدم والجند والعبيد الصقالبة في جبهة واحدة قوية، مستغلين اختلاف الأوضاع وضعف موقف الأمير.[١] هذا، وقد صاحب الصراع بني صالح إلى نهاية دولتهم.

إذا انتقلنا إلى السلطة الإدريسية، نجد أنه بعد فترة الإستقرار التي شهدها عهد إدريس الأول والثاني، فقد طبعت عهد محمد بن إدريس كثرة النزاعات بين أبناء إدريس الثاني، ثم بين أحفاده وذريته فيما بعد، حيث برزت كيانات صغرى مستقلة[٢] نظرا لغياب سلطة مركزية قوية، وأصبح الصراع يشتد بين الإخوة المتخاصمين من أجل الإستقلال ببعض المناطق، بل احتلال قاعدة فاس والسيطرة على الحكم فيها، لما لها من أهمية سياسية وروحية ورمزية.[٣] ويمثل حدث خروج عيسى بن إدريس عن أخيه محمد بداية للصراعات ولحركات عصيان مماثلة، إذ ثار أيضا القاسم بن إدريس واستقل بإقليم البصرة وأصيلا، واحتل داوود بن إدريس مدينة سبو،

١- الطاهري، **إمارة بني صالح**، ص.٦٦-٦٧.

٢- وذلك بعد قرار محمد الإبن الأكبر لإدريس تقسيم المملكة إداريا بين إخوته، أنظر ذلك عند البكري، ج.II، ص.٣٠٨ / **القرطاس**، ص.٦٥ / **العبر**، ج.VI، ص.٢٨٨-٢٨٩ وغيرها.

٣- وانتقل الصراع إلى أبنائهم، ينظر المصادر : البكري، ج.II، ص.٣٠٩/ **القرطاس**، ص.٩٤-٩٥/ إبن عذاري، ج.I، ص.٢١٢ / **الإستقصا**، ج.II، ص.٥٣..

والأخطر تمكنه من دخول عدوة الأندلس من مدينة فاس والإستقرار بها، ومصارعته للأمير يحيى بن يحيى بن محمد.[١]

إذا كان أدارسة الشمال قد انشغلوا بحرب بعضهم البعض، فإن أدارسة الجنوب ذهبوا في اتجاه الإستقلال التام، خاصة أبناء عبد الله بن إدريس الذين نافسهم بنو عمومتهم من بني عيسى وبني حمزة وبني يحيى أبناء إدريس الذين تمكن أحدهم من الهيمنة على درعة، ودخل في صراع مع بني عبد الله حول مدينة تامدولت، وهو علي بن أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس الثاني.[٢]

لم تحل النتائج الخطيرة لتقسيم المملكة الإدريسية بين أبناء إدريس الثاني دون قيامهم بتوزيع ما تحت نفوذهم على أبنائهم وأحفادهم، مما زاد في إذكاء نار الحروب والتنافس، كتلك التي دارت رحاها بين أحمد الكرتي بن القاسم أمير مدينة كرت وبين أخيه الحسن الحجام بن محمد بن القاسم أمير ماسيتة،[٣] وقد أدت هذه الصراعات بين الأدارسة إلى إضعافهم، بل تمكن عبد الرزاق الخارجي من السيطرة على فاس لمدة معينة، وبقي أمر الأدارسة وكلمتهم في تفرق وتشتت إلى حين التدخل الفاطمي في المغرب.[٤]

١- بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.I، ص.٣٧، وحسب تعبير ميشيل طراس، فإن إخوة محمد كانوا يظهرون قليلا من الترابط العائلي، (Michel Terrasse, ***Islam et Occident méditerranéen : de la conquéte aux Ottomans***, C.T.H.S, Paris, ٢٠٠١, p.٤٣).

٢- بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.I، ص.٣٧-٣٨.

٣- البكري، **المسالك**، ج.II، ص.٣١١.

٤- البكري، ج.II، ص.٣٠٩ / إبن عذاري، ج.I، ص.٢١٢.

من خلال ما سبق، يتبين أن المغرب الأقصى لم يكن خلال ق.٢.هـ وبداية ق.٣هـ يمثل مجالا منسجما تحت سلطة مركزية واحدة، كما يتضح من خلال الأدبيات التاريخية أن الدول التي حكمته والتي كانت قوية داخليا إلى حد ما، وفي توازن فيما بينها في ق.٢هـ، فإنها أصيبت بعد ذلك بأسباب الضعف والإنحطاط نظرا للصراعات الداخلية على السلطة، مما دفع وسرع ببروز دويلات قبلية جديدة لم تزد الأوضاع إلا تأزما وتدهورا[١]، ومما سمح أيضا للقوى الخارجية المتمثلة في الفاطميين والأمويين بالتغلغل مستغلة هشاشة الوضع ومكونة أحلافا سياسية موالية لها. وهذا ما سيعمق أزمة الصراع أكثر خاصة مع اختلاف الوجهات السياسية والقناعات المذهبية والمصالح الإقتصادية.

لقد حاول الفاطميون في عهد الخليفة عبيد الله المهدي بسط سلطتهم على المغرب، إذ أمر هذا الأخير عامله على تاهرت مصالة بن حبوس المكناسي سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٧م بغزو إمارة بني صالح التي كان أمراؤها حلفاء لبني أمية بالأندلس،[٢] وإخضاع الأدارسة والخوارج الصفرية وكثير من المدن والمناطق المغربية خاصة تلك التي ترتبط بأهمية تجارة الذهب والرقيق، وهكذا "خرج أبو عبد الله الشيعي مع جماعة من قواد كتامة ودعاتهم إلى أرض المغرب: لما ظهر فيه من الإلتيات، وفساد الطرق، وقيام القبائل على عمالهم، فافتتح المدن وقتل وسبى".[٣] وبالمقابل تدخلت الخلافة الأموية بكل ثقلها لكسب ود وموالاة أمراء زناتة لها، واستغلت فرصة انشغال الفاطميين بمحاربة أبي زيد الخارجي في المغرب الأوسط والقضاء على ثورته

---

[١] - بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.I، ص.٣٦.

[٢] - البكري، ج.II، ص.٢٧٨ / إبن عذاري، ج.I، ص.١٧٩ / إبن خلدون، ج.٦، ص.٢٨٥.

[٣] - إبن عذاري، ج.I، ص.١٦٠.

الخطيرة لتؤسس قواعد عسكرية في طنجة وسبتة ومليلية وغيرها، ويأتي الخليفة المعز لدين الله فيحاول إعادة فرض سلطة النفوذ الفاطمي على المغرب، لكن رغم إرساله لحملة عسكرية بقيادة قائده جوهر الصقلي سنة ٣٤٧هـ، إلا أنها فشلت في الهيمنة على القواعد العسكرية لبني أمية، إذ حرص هؤلاء على الحفاظ عليها لأهميتها الإستراتيجية ضد أي هجوم محتمل لشيعة الفاطميين على الأندلس.[1]

هكذا دخل المغرب مرحلة عصيبة من تاريخه، إذ توسعت عوامل الصراعات وساهمت فيها أطراف خارجية أصبحت لها مصالح أكيدة في أرضه. لما توطدت الأمور لسعيد بن صالح الحميري جاءه كتاب عبيد الله المهدي يدعوه فيه وأهل المغرب إلى الدخول تحت سلطته والخضوع لحكمه، وذيله بأبيات كثيرة من الشعر منها :

وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا ... فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم
وأدخلها عفوا وأملؤها قتلا ... وأعلوا بسيفي قاهرا لسيوفكم

ورد عليه شاعر بني صالح الأحمس الطليطلي قائلا :

ولا علم الرحمان من قولك الفضلا ... كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا
تمثل للجهال في السنة المثلا ... فما كنت إلا جاهلا ومنافقا
وقد جعل الرحمان همتك السفلى[1]. ... وهمتنا العليا لدين محمد

---

[1]- أحمد مختار العبادي، "سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس"، ص.٢٠٣-٢٠٤ / الحبيب الجنحاني، **المجتمع العربي الإسلامي: الحياة الإقتصادية والإجتماعية**، سلسلة عالم المعرفة، ع.٣١٩، شتنبر ٢٠٠٥، ص.٢٠٧ وما بعدها.

السفلى[١].

لم يتقبل عبيد الله هذا الرد القاسي، فكتب لعامله على تيهرت مصالة بن حبوس بمحاربة سعيد بن صالح، فخرج من مدينته في ذي الحجة من سنة ٣٠٤هـ / ٩١٧ م، ونزل بجيشه في موضع قريب من مدينة نكور يسمى نسافت، فخرج إليه الأمير سعيد "فغلبهم ... وقومه أياما"،[٢] بل إنه فكر في اغتيال مصالة المكناسي رأس الحملة العسكرية عليهم بهدف إفشالها، وترجم ذلك عمليا في قيام حمد بن العياش[٣] أحد أعلام وشجعان البربر من بني بطوقت أو يطوفت باقتحام معسكره (أي مصالة) هو وسبعة فرسان، لكن العملية لم تنجح وتم القبض على منفذيها، وحينما أمر مصالة بضرب عنق إبن العياش قال له : "ليس مثلي يقتل ... لأنك لا تطمع في سعيد إلا بي وعلى يدي"، فاستبقاه إبن حبوس وقربه، ولما أنس به أعطاه كتيبة من الجيش، فتمكن من اختراق جيش سعيد بغتة، أتاه من حيث لا يحتسب خاصة مع علمه بمكامن الخلل والضعف، ولما أحس إبن صالح أن لا طاقة له بمصالة وجنوده الذين فرقوا جمعهم، بعث إلى مدينة نكور من هرب أسرته وماله إلى جزيرة بمرسى نكور ومنها إلى مالقة وبجانة بالأندلس، وقاتل حتى قتل وقطع رأسه الذي أرسل إلى إفريقية من ضمن رؤوس بعض آل صالح، وأمر بالطواف بها في مدينة القيروان، ثم نصبت على أبواب مدينة رقادة، وأنشد في ذلك أحد الشعراء العبيديين، وهو أبو جعفر أحمد بن المزدوي قائلا :

١- البكري، ج.II، ص.٢٧٨ / إبن عذاري، ج.I، ص.١٧٨ / إبن خلدون، ج.VI، ص.٢٨٥.

٢- إبن خلدون، ج.VI، ص.٢٨٥، ويذكر البكري وإبن عذاري أن الحرب كانت متكافئة بين الطرفين ثلاثة أيام (المغرب، ج.II، ص.٢٧٨،/ البيان المغرب، ج.I، ص.١٧٩).

٣- البكري، ج.II، ص.٢٧٩، ويسميه إبن عذاري (ج.I، ص.١٧٩) بأحمد بن العباس.

في عصبة من الطغام الجهل ... لما طغى الأرذل وإبن الأرذل
أتاه مختوم القضاء الفيصل ... قال نكور دون ربي معقلي
فحل أرضا طالما لم تحلل ... من الإله كالحريق المشعل
وجماء رأس رأسها المبذل ... حطم أهل كفرها بالكلكل
ذو لمة شاعته لم تغسل ... على القنا من الرماح الذبل
ولحية غبراء لم ترجل[1]

بقي مصالة بن حبوس مقيما لستة أشهر، ثم استخلف رجلا من كتامة إسمه دلول، فانفض عنه عسكر المشارقة، وبقي معه من عصبية قومه عدد قليل. فلما وصلت هذه الأنباء إلى بني صالح الذين كانوا يتابعون مجريات الأمور من مالقة، اتفقوا على العودة إلى نكور لاسترادها من الفاطميين، ثم تعاهدوا على أن من وصل الأول تكون له الإمارة والسلطة، فركبوا البحر وانطلقوا في وقت واحد، فوصل صالح أصغرهم سنا إلى مرسى نكور ليلا، ثم نزل بالمرسى المعروف بوادي البقر بتمسامان، وما إن سمع بقدومه أنصاره من البربر حتى سارعوا إلى لقائه وعقد البيعة له، وزحفوا إلى دلول وأخذوه وجميع أصحابه فصلبوهم على ضفتي نهر نكور.[2]

لم تكن الخلافة الأموية بالأندلس بعيدة عن تطورات الأحداث بالمغرب، فهي التي تدعم أمراء نكور لاسترداد ملكهم، ولما تم لهم ذلك أعلنوا ولاءهم لقرطبة، "وكتب صالح بالفتح والنصر إلى أمير المؤمنين الناصر، فأمر بإمداد صالح بالأخبية

---

[1]- البكري، المغرب، ج.II، ص.٢٧٩ / إبن عذاري، ج.I، ص.١٧٩-١٨٠.

[2]- البكري، ج.II، ص. ٢٨٠ / إبن عذاري، ج.I، ص. ١٨٠/ إبن خلدون، ج.VI، ص.٢٨٥.

والآلات والأسلحة ..."."[١] ولعل هذا التدخل الأموي في شؤون المغرب هو الذي سيؤدي إلى احتدام الصراع مع الفاطميين، والذي أذكته عوامل مذهبية وسياسية واقتصادية، بالإضافة إلى التشرذم الذي كان يعرفه المغرب. "فالأحداث السياسية والعسكرية كانت تهدف إلى تدعيم النفوذ السياسي من جهة، والسيطرة على شريان تجارة الذهب والرقيق في نهايات المسالك الصحراوية والمراكز المرتبطة بها في الوسط والواجهة البحرية الشمالية من جهة أخرى ..."،[٢] وإذا كان الفاطميون قد جهزوا حملة عسكرية جديدة بقيادة مصالة سنة ٣٠٨هـ لاستعادة نكور لقبضتهم والإستيلاء على فاس وإعادة السيطرة على سجلماسة سنة ٣٠٩هـ[٣]، فإن الأمويين سيواجهون هذه التوسعات الشيعية بالقيام بحملات عسكرية مماثلة بعدما نجحوا في تأليب بعض القبائل ضد التدخل الفاطمي بالمغرب كأسرة بني خزر مثلا، بل في كسب أنصار كانوا بالأمس خصومهم، فموسى بن أبي العافية القائد العسكري الكبير حليف الفاطميين سيعلن ولاءه لقرطبة، ويستولي سنة ٣١٧هـ على المنطقة الساحلية الممتدة من شمال تاهرت إلى منطقة طنجة، ثم ربط هذه الواجهة البحرية بالسوس الأقصى. وحينما شعر الفاطميون بالخطر يتهددهم شنوا عدة حملات من أهمها حملة حميد بن يصليتن في عهد المهدي، وحملة ميسور الفتى في عهد إبنه القائم، والتي استطاعت أن تعيد سيطرة الفاطميين على بعض الأجزاء الترابية للمغرب.[٤]

١- إبن عذاري، ج.I، ص. ١٨٠.

٢- محمد حباني، "غزوات زيري بن عطية وتأسيس حاضرة المغرب الشرقي"، **مجلة كلية الآداب - وجدة**، ع.٣، ١٩٩٢، ص.٢٠.

٣- إبن عذاري، ج.I، ص. ١٨٣، ١٨٥.

٤- Henri Terrasse, *la* politique des Califes de Cordoue au Maroc, *Bulletin de l'enseignement public de maroc*, ٣١éme années, n°١٧٩, janvier - mars, ١٩٤٤, p.٦/ الجنحاني، **المجتمع العربي الإسلامي**، ص.٢٧١.

بالمقابل استغل خلفاء الأندلس الإضطرابات التي خلفتها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد وانشغال العبيديين بها لتدعيم وجودهم بعدوة المغرب، وفرض حكم مباشر بها[١] إلى أن عينوا زيري إبن عطية واليا لهم عليها، فملك فاس بعدما طرد منها بني يفرن بعد حروب كثيرة. و"قوي أمر زيري بن عطية بالمغرب، ولم يبق له منازع وهابته الملوك، وبقي الأمر بينه وبين المنصور"،[٢] وذلك إلى حدود سنة ٣٨٦هـ حيث ستدخل العلاقة بينهما طورا من التوتر تجلت مظاهره في مجموعة من الإجراءات التي اتخذها الجانبان، إذ أن رؤية كل واحد منهما كانت تختلف عن رؤية الآخر، "فالمنصور كان يهدف بسياسته المغربية إلى تدعيم مركزه وتوطيد سلطته في المغرب بواسطة زيري والقوى المحلية الأخرى، بينما كان زيري يريد أن يعامل كأمير يتمتع بحرية واستقلال الرأي في اتخاذ المبادرة والقرار وصاحب النفوذ الأوحد على المغرب الأقصى في إطار تبعية إسمية للخليفة الأموي هشام المؤيد".[٣] وهكذا بدأ يعرض بإبن أبي عامر، ويعتبر سلطته استبدادية وغير شرعية، فكان رد فعل هذا الأخير أن قطع عنه "ما كان يجريه له في كل سنة"،[٤] ولم يزد ذلك زيري إلا تعنتا وعنادا، حيث قطع ذكر المنصور من الخطبة وقصر الدعاء لهشام بن عبد الحكم المؤيد، وطرد عماله إلى سبتة وهو ما شكل تهديدا مباشرا لمصالح الأمويين بالمغرب، مما دفع بالمنصور إلى التعجيل بإرسال جيش كبير بقيادة فتاه واضح الذي جمع حوله

---

[١]- بعث المنصور بن أبي عامر قائديه عسكلاجة وأبو بياش إلى المغرب لإخضاعه، حيث زحف الأول على فاس سنة ٣٧٥ هـ فملكها باسم المروانيين، والثاني دخل عدوة القرويين سنة ٣٧٦ هـ، فقتل محمد بن عامر المكناسي، والي العبيديين وخطب بها لبني أمية (**القرطاس**، هامش ص.١٢٨).

[٢]- **القرطاس**، ص.١٣١.

[٣]- حباني، "غزوات زيري.."، ص.٢٣.

[٤]- **القرطاس**، ص.١٣٢.

بعض قبائل غمارة وصنهاجة وغيرهما من القبائل الأخرى المجاورة لطنجة، وخرج زيري إليه من فاس مدعوما بقبائل زناتة وغيرهم، فالتقى الجمعان بـ"وادي ردات" قرب مدينة مشرع إبن القصيري الحالية، وكانت الهزيمة على القائد الأندلسي واضح،[١] وبهذا اضطر المنصور إلى إرسال إبنه عبد الملك المظفر "بجمع عسكر الأندلس وجيوشها وقوادها ... وأمر بحرب زيري بن عطية"،[٢] بينما بقي هو في الجزيرة الخضراء لتقديم الدعم اللازم،[٣] فتم اللقاء العسكري بوادي منى بنواحي طنجة في شوال من ٣٨٨هـ، والذي أسفر عن هزيمة زيري وفراره إلى فاس مثقلا بالجراح، فلفظه أهلها فتوجه إلى الصحراء.[٤] وبذلك استعاد المروانيون نفوذهم على المغرب الأقصى.

ما إن خرجت المدينة المغربية من جحيم الصراع الأموي الفاطمي حتى صارت ضحية لصراع آخر محلي بين قبائل زناتة، فقد عاشت مدينة فاس أنموذجا مرارة التنافس بين مغراوة وبني يفرن، إذ أن كل واحدة من هاتين القبيلتين كانت تسعى إلى السيادة والإستبداد وحدها بالحكم. وهكذا فقد استغل يدو بن يعلى اليفرني ذهاب زيري للأندلس ليستولي على فاس، لكن الأخير استطاع استرجاعها وإجلاء بني يفرن عنها سنة ٣٨٢-٣٨٣ هـ بعد حروب طاحنة.[٥] ورغم ذلك ظلت الهجومات والهجومات المضادة بين الأمراء الزناتيين سمة المرحلة، بدء بالأمير تميم بن زيري

١- **القرطاس**، ص.١٣٢ / **العبر**، ج.٧، ص.٤٤.

٢- **القرطاس**، ص.١٣٢.

٣- إبن عذاري، ج.١، ص.٢٥٢-٢٥٣.

٤- **القرطاس**، ص.١٣٣-١٣٤/ **العبر**، ج.VII، ص.٤٥.

٥- **القرطاس**، ص.١٣٠-١٣١.

الذي زحف على فاس من سلا وهزم حمامة بن المعز بن عطية، وذلك سنة ٤٢٤ هـ[١] قبل أن يستعيدها هذا الأخير سنة ٤٣١ هـ[٢] ثم مرورا بالأخوين فتوح وعجيسة الذين كرسا انفصام مدينة فاس بسيطرة كل واحد منهما على إحدى عدوتيها، وأدخلاها في حروب طاحنة لحوالي ثلاث سنوات،[٣] ثم انتهاء بصراعات مرحلة ضعف الدولة سواء بين الأمراء المتنافسين على الحكم، أو بينهم وبين القبائل اللمتونية التي كانت تطمح إلى غزو مختلف البلدان والمدن المغربية وجعلها تحت سيطرتها.

إن الوضع السياسي العام للمغرب قبل مجيء المرابطين كان يعرف بعمق كل مظاهر التجزئة والتنافس والصراع من أجل النفوذ والسيطرة بين كافة القوى السياسية آنذاك.[٤] فظروف عدم الاستقرار التي فجرها الصراع الأموي الفاطمي ساهمت في إشعال حروب وصراعات بين كيانات المرحلة من أجل الهيمنة على بعض المدن أو الأجزاء الترابية التابعة للبعض منها، مما أدى إلى تدهورها وتزايد نفوذ بعض المجموعات القبلية، وخاصة قبائل مكناسة "بزعامة موسى بن أبي العافية التي تمكنت من الضغط على السليمانيين في الشرق والأدارسة في الغرب، وأزاحتهم عن المدن الحيوية الأساسية، إلى درجة أن أصبحت في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م، تسيطر على كل الحزام الممتد من تلمسان وجراوة شرقا إلى المحيط الأطلسي في

---

[١]- **القرطاس**، ص.١٣٧-١٣٨ / العبر، ج.VII، ص.٤٨.

[٢]- **القرطاس**، ص.١٣٩.

[٣]- **القرطاس**، ص.١٤١/ **العبر**، ج.VII، ص.٤٨-٤٩.

[٤]- إبن عذاري، ج.IV، ص.١٠.

الطرف الغربي، وأصبحت تشكل بذلك قوة سياسية وعسكرية جديدة قادرة على تحقيق أطماع قوى الصراع".[١]

كما شكلت بورغواطة قوة سياسية وعسكرية مهمة، فقد توسعت في كل الأراضي الممتدة في بهت وتادلا وجبال فازار، مستغلة الصراع الواقع في الشمال خاصة بين الأدارسة ومكناسة، بل إنها حاولت الهيمنة على منطقة سبو الغربية أيضا نظرا لغياب سلطة فعلية إدريسية هناك، إذ انشغل الأدارسة بالضغط الأموي الذي استنزف جهودهم.[٢] ولعل الحصن الذي يوجد بإحدى ضفتي واد مرسى موسى يشهد على حدة الصراع الذي كان قائما بين المروانيين وبني محمد الأدارسة الذين كانوا مقيمين بشمال المغرب[٣]، ومن غير شك أن احتلال سبتة من طرف الأمويين سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١م، صاحبه كذلك مرسى موسى الذي كان عبد الرحمان الثالث قد أعاد بناء الحصن فيه، وقد دمر هذا الأخير مرة أخرى من طرف بني محمد سنة ٣٤٠ هـ/ ٩٥٢م، ومن المحتمل أن ذلك وقع خلال المعارك التي دارت رحاها بينهم وبين الأمويين بعد استيلاء هؤلاء على طنجة سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥١م.[٤]

أكدت التحولات والأحداث في مغرب الصراع الشمالي على قوة بعض الكيانات السياسية والقوى العسكرية، ولهذا نجد أن الخلافة العبيدية أو المروانية تجاوزت الكيانات الضعيفة، ولم تعد تهتم بدولة بني صالح مثلا بعد أن اتضح أنها لم تعد تمثل إلا قوة ثانوية وغير قادرة على خدمة أهداف القوى الخارجية في بسط

---

[١]- بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**،ج.II، ص.٤٣٢.

[٢]- بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.II، ص.٤٣٢-٤٣٣، وينظر كذلك ج.Iص.٤٧-٤٨.

[٣]- جاك كاني، **المغرب الشمالي..**، ص.١٣٠.

[٤]- كاني، "المغرب الشمالي"، ص.١٣٠.

نفوذها على المجالات الحيوية الداخلية،[١] وهذا ما جعل الظرف مناسبا لموسى بن أبي العافية للقضاء على إمارة نكور، حيث زحف نحوها لملاقاة أميرها المؤيد عبد البديع "فحاصره حتى تغلب عليه، فقتله واستباح المدينة وانتهبها، وهدم أسوارها، وخرب ديارها ونسف آثارها، وتركوها بلاقع تسفى عليها الرياح، وتعوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة بن حبوس، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة".[٢]

مع تراجع التدخل الخارجي في المغرب ثم ظهور القوة المرابطية سيبدأ فصل جديد من الصراع السياسي بين المرابطين وباقي القبائل السائدة في تلك المرحلة، وخاصة بني يفرن وبني مغراو الزناتيين. فحينما غزا عبد الله بن ياسين سجلماسة و"أصلح أحوالها"، عاد إلى الصحراء وقدم عليها عاملا من لمتونة، ولم يترك معه سوى حامية عسكرية صغيرة، فاستغل بنو خزر الواقع الهش للوجود المرابطي، وبمجرد خروج الملثمين انقضوا على كتيبة الجيش المرابطي في سجلماسة وفتكوا بها،[٣] ولم يستطع مناصرو صنهاجة من أهالي المدينة مقاومة ممارسات المغراويين فراسلوا عبد الله بن ياسين وألحوا عليه في الدعوة إلى القدوم مرة ثانية لتصحيح الوضع، وفعلا فقد قرر تجديد محاربته للذين هدموا كل ما حققه من إنجازات وإصلاح، وغزاها مرة أخرى بعد أن انضم إليه أبو بكر بن عمر الذي كان أميرا على درعة في أعداد كثيرة من لمتونة ومسوفة ولمطة وترجة، واستطاع هزم مغراوة

---

[١]- بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.٢، ص.٤٣٣.

[٢]- البكري، ج.II، ص.٢٨١، وينظر كذلك العبر، ج.VI، ص.٢٨٥ / إبن عذاري، ج.I، ص.١٩٤.

[٣]- البكري، ج.II، ص.٣٥٤/ إبن عذاري، ج.IV، ص.١٣.

واستعادتها.[١] وتوالى صراع المرابطين مع باقي القوى السياسية الموجودة بالمناطق المغربية آنذاك إلى أن استتب لهم الأمر وملكوا منطقة واسعة من الغرب الإسلامي.

كان هذا جرد لأهم مظاهر الصراع السياسي الذي اشتعل خلال المرحلة التاريخية المعنية، والذي لا شك أنه سيترك بصماته على المدينة المغربية في كافة المناحي. إذ أن الصراعات الدورية بين مختلف السلطات السياسية المغربية كانت لا تمر دون أن تخلف نتائج سلبية على المدن التي تشكل ميدانا وساحة لها، سواء من الناحية العمرانية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ... فمن قتل وتخريب ونهب إلى تردي الأوضاع العامة واختلال الأمن وشلل التجارة والأسواق وغيرها، وهذا ما برز بجلاء إبان مرحلة الصراع الأموي الفاطمي الذي بصم جوانب متعددة من الحياة المغربية. والسؤال المطروح : ما هي الإنعكاسات والآثار العامة للصراع السياسي على المدينة المغربية ما بين ١- ٥هـ/ ٧-١١م ؟

على المستوى العمراني، غالبا ما أدت التوسعات إلى تخريب أو على الأقل تدهور المدن، فخلال زمن الفتوح الإسلامية للمغرب خربت وهدمت العديد منها كإيجلي وتاقريست مثلا،[٢] وبسبب صراعات الأسرة الإدريسية وخاصة بين أبناء محمد وعمر والقاسم وداوود "دخلت مدينة فاس مرحلة انقسامية غامضة مما جعل طابع التراجع التمديني أهم ما يميز وضعها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، واستمر هذا الوضع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي".[٣] وتعرضت المدن الإدريسية الأخرى أيضا للدمار

١- البكري، ج.II، ص.٣٥٤/ إبن عذاري، ج.IV، ص.١٣-١٤.

٢- الزهري، **كتاب الجعرافية**، ص.١١٧/ مارمول، **إفريقيا**، ج.I، ص.٢٨.

٣- هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ج.II، ص.٤٢٧.

والتخريب إبان الحملات العسكرية التي شنها موسى بن أبي العافية وخلفاؤه، والحروب التي شنها الأمويون في عهد الحكم المستنصر وإبن أبي عامر الذي وضع نهاية للدولة الإدريسية بعد تخريب قواعدها ومدنها وحصونها التي كانت تلجأ إليها في وقت الشدة كالبصرة وحجر النسر وزلول ...[١] وفي السياق نفسه قرر الأدارسة هدم بنيان مدينة تطوان بضغط من أمويي الأندلس سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م، ولما أرادوا إعادة بنائها وتعميرها في ٣٤١ هـ/ ٩٥٣م منعهم عبد الرحمان الناصر بالقوة العسكرية من ذلك، خاصة حين "ضج أهل سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة وتقطع عنها مرافقها".[٢] بل إن خلفاء قرطبة، وفي إطار حربهم ضد أدارسة الريف لاستئصالهم، مارسوا كل أنواع التخريب والدمار والنهب. مثلا فخلال الحملة العسكرية التي أرسلها الحكم المستنصر بقيادة وزيره محمد بن قاسم بن طلمس، أمر هذا الأخير جنده بنهب وهدم أسوار وتحصينات مدينة دلول وإضرام النار في منازلها لتصفية الوجود الإدريسي بزعامة الحسن بن كنون بها.[٣]

في إطار حملته على المغرب الأقصى، عجز بلكين بن زيري عن احتلال مدينة سبتة نظرا لحصانتها ثم لوجود جيش أموي كثير بها، فلجأ إلى البصرة ودمرها تدميرا، "فصارت كأن لم تغن بالأمس"،[٤] لكن رغم هذا يظهر أنها قد تم ترميمها في عهد المرابطين، واستمرت في الوجود لأكثر من قرنين.[٥] ولا ننسى أن توسعات الملثمين بدورها خلفت تخريب العديد من المدن خاصة في منطقة تامسنا أثناء

---

[١]- أملبد، **المدن الإدريسية**، ص.٢٢٤.

[٢] - البكري، ج.II، ص.٣١٤، وينظر أيضا: إبن عذاري، ج.I، ص.٢٢٢.

[٣] - إبن عذاري، ج.I، ص.٢٤٧.

[٤] - إبن عذاري، ج.I، ص.٢٣٧، تم تخريبها سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨١م.

[٥] - Eustache, El Basra, p.٢٣٣

حروبهم مع برغواطة مثل النخيلة وأدنون وزرفة، ثم دمنة بالشمال، والتي دكها المرابطون في إطار مطاردتهم لمغراوة فاس الذين فروا إليها.[١]

للصراعات والحروب تأثير بالغ الخطورة على المجال العمراني للمدن، لكن قد لا يصل إلى ما تذكره المصادر التي لا تدقق في بعض الكلمات التي تحيل على أزمة المدينة المغربية من الناحية المعمارية كمفهوم الخراب والتخريب مثلا، والذي قد يعني تدهور العمران أو مسحه بالكلية، بل إنها تبالغ في تصوير الخراب وتهويله. كمثال، يقول إبن خلدون إنه بعد زحف موسى بن أبي العافية إلى مدينة نكور في عهد أميرها عبد البديع المؤيد حاصرها واستباحها و"خربها"،[٢] فما حجم الخراب إذن ؟! ويوضح البكري أكثر حينما يقول إن إبن أبي العافية حاصر عبد البديع "حتى تغلب عليه، فقتله واستباح المدينة وانتهبها، وهدم أسوارها، وخرب ديارها ونسف آثارها، وتركوها بلاقع تسفى عليها الرياح، وتعوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة بن حبوس..."،[٣] ويذكر أيضا أن يوسف بن إلياس البورغواطي لما تولى أمر السلطة "أظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة".[٤] بل زاد إبن عذاري في المبالغة ورفع العدد إلى "ثمانمائة موضع من مواضع البربر".[٥]

---

١ - القرطاس، ص.١٨٠/ العبر، ج.VI، ص.٢٤٧،٢٩٦.

٢ - العبر، ج.VI، ص.٢٨٥.

٣ - المغرب، ج.II، ص.٢٨١.

٤ - البكري، ج.II، ص.٣٢٠.

٥ - البيان المغرب، ج.I، ص.٢٢٤.

من خلال هذه المقتطفات وغيرها يظهر أن النصوص التاريخية بالغت وهولت أكثر من الإنعكاسات السلبية التي تطرأ على عمران المدن بفعل الحروب والنزاعات بين القوى القبلية والسياسية للفترة المدروسة.

لا تقتصر تأثيرات الصراعات السياسية على الكيان المادي للمدينة فحسب، وإنما تشمل كل المجالات والميادين الأخرى، ومن ذلك طبيعة الأنظمة السياسية والقناعات المذهبية، ففي بلاد الريف مثلا، استغلت قبيلة مجكسة الضعف العام للأدارسة والحميريين بسبب صراعاتهم الداخلية، لتحتل مدينة سبتة تحت زعامة زعيمها ماجكن،[١] وتقيم بها إمارة صغيرة توارثها أبناؤه إلى أن فتحها عبد الرحمان الناصر لدين الله الأموي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣١م،[٢] كما استغلت مكناسة ملوية الصراع بين بني إدريس سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، فقامت بطرد داوود بن إدريس الذي عين على تازا وتسول في تقسيم ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، بل صارت هذه القبيلة تشرف على الأدارسة أنفسهم في عهد زعيمها موسى بن أبي العافية، مما شكل مرحلة سياسية واجتماعية جديدة في تاريخ المغرب الأقصى تمثلت في بداية التحكم الزناتي فيه.[٣] واستغل عبد الرزاق الخارجي تدهور الأوضاع السياسية، فاحتل مدينة صفرو وعدوة الأندلسيين مما وضع حدا لولاية علي بن عمر بن إدريس على مدينة فاس، واضطر إلى الهروب نحو بلاد أوربة، لكن يحيى الثالث الملقب بالمقدام تمكن من إعادة هذه المدينة إلى النفوذ الإدريسي، رغم أنه لم يستطع القضاء على الحركة الخارجية بصفة نهائية. كما استثمرت بعض المدن انشغالات الأدارسة لتخرج عنهم في إطار حركة إعتزالية،

---

١ - البكري، ج.II، ص.٢٨٦، ويسميه إبن خلدون ماجكس (العبر، ج.VI، ص.٢٨٢).

٢ - البكري، ج.II، ص.٢٨٦، إبن خلدون، ج.VI، ص.٢٨٢-٢٨٣.

٣ - بيصعين، الصراع الفاطمي الأموي، ج.I، ص.٤٥/ Michel Terrasse, *Islam et occident..*, p.٤٥

مثل مدينة وطيط وإيجرمان بزعامة بعض أعلام المذهب كمحمد بن كسيل ومعزوز بن طالوت وأبي حفص الزناتي.[١] والشيء نفسه قامت به أغمات التي طبقت نظام حكم شوري، حيث "يتولى الرجل منهم سنة ثم يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق".[٢]

من جانب آخر، ساهمت الصراعات الداخلية بين بني مدرار في إضعاف سلطتهم، خاصة الصراع الذي وقع بين ميمون بن أروى وأخيه ميمون بن ثقية، ورغم تدخل الدولة الرسمتية والخوارج الإباضية فيه، فإنه حسم لصالح إبن ثقية بعد أن أرغم الصفرية أباه المنتصر على التخلي عن الحكم، وبايعوه عليهم،[٣] فحقق الأمن والهدوء وعمل على التوسع خارج حدود الإمارة، وواصل إبنه وخليفته محمد بن ميمون الملقب باليسع مسيرة أبيه قبل أن يغزو الفاطميون سجلماسة ويقوموا بقتله، ويقوم عبيد الله المهدي بتولية إبراهيم بن غالب المراسي عليها، وذلك سنة ٢٦٧هـ/ ٩١١م.[٤]

على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، فالنزاعات السياسية غالبا ما تؤدي إلى تراجع الموارد الفلاحية وتدهور النشاط التجاري والحرفي وغلاء المعيشة وانتشار المجاعات وغيرها. فقد أدت الفوضى السياسية وكثرة الفتن التي عاشها المغرب قبيل المرابطين إلى انهيار الإنتاج الاقتصادي واضطراب الأوضاع الاجتماعية، بل

---

[١] - بيصعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ج.I، ص.٤٥-٤٦.

[٢] - البكري، ج.II، ص.٣٣٩.

[٣] - البكري، ج.II، ص.٣٣٥، إبن خلدون، ج.VI، ص.١٧٣/ إبن عذاري، ج.I، ص.١٥٧.

[٤] - البكري، ج.II، ص.٣٣٥، إبن خلدون، ج.VI، ص.١٧٣/ إبن عذاري، ج.I، ص.١٥٧.

"عدمت الأقوات"[١] في بعض الأحيان. ولما ملك حمامة بن المعز المغراوي المغرب قام عليه بمدينة سلا الأمير تميم بن زيري الذي زحف على فاس في قبائل بني يفرن، مما خلف قتلى كثرا خاصة في صفوف مغراوة،[٢] عدا الجرحى والمعطوبين، وفر حمامة إلى وجدة ينتظر الفرصة السانحة للعودة إلى قاعدته، وهذا ما تحقق له بالفعل. وإذا كان عهد إبنه دوناس قد طبعه شيء من الاستقرار، فإن الصراع والاضطراب سيتجدد في عهد إبنيه الفتوح وعجيسة، واللذين "كان بينهما الحرب على الدوام ... فكانا لايزالان يقتتلان ليلا ونهارا، فكثر الخوف في أيامهما بالمغرب وغلت الأسعار واشتدت المجاعة وعظم الهرج وقويت الفتن في جميع نواحي بلاد المغرب"،[٣] بل إن أطراف الصراع من الزناتيين كانوا لا يتورعون عن الدخول "على الناس في ديارهم فيأخذون ما يجدون من الطعام ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم، ويأخذون أموال التجارة، فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك ولا يتجرأ أن يكلمهم فيه، ومن لم يوافقهم في شيء من ذلك أو صدهم عنه قتلوه"،[٤] ومن شدة خوف أهل فاس على مؤنهم اتخذوا "المطامير في بيوتهم وديارهم للخزن والطحن والطبيخ ليلا يسمع دوي الرحى، وفيها أيضا اتخذوا غرفا لا أدراج لها، إذا كان عشي النهار طلع الرجل فيها بسلم هو وعياله وأولاده، ثم رفع السلم معه ليلا يدخل عليه فجأة".[٥]

---

[١]- القرطاس، ص.١٧٨/ الإستقصا، ج.II، ص.١٩٦.

[٢]- القرطاس، ص.١٣٧.

[٣]- القرطاس، ص.١٤١.

[٤]- القرطاس، ص.١٤١.

[٥]- القرطاس، ص.١٤١.

إذا كان الصراع بين مختلف القوى والكيانات قد تأثر في أغلب الأحيان سلبا على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، فإن تأثيره امتد إلى الجانب المذهبي كذلك، فقد تراجع المذهب الخارجي الصفري خاصة بسجلماسة، كما تم القضاء على المذهب الشيعي البجلي بتارودانت من قبل المرابطين، وبالمقابل توطد نفوذ المذهب المالكي تدريجيا بالمدينة المغربية، وبصفة أخص مع مجيء قبائل الملثمين التي عملت جاهدة على محو كل الاختلافات المذهبية والسياسية.

على العموم، شكلت الصراعات والمنافسات السياسية ما بين ق.١-٥هـ/ ٧-١١م مظهرا لافتا وسمة بارزة، سواء كانت داخلية ما بين أطراف السلطة الواحدة أو بين سلطتين مختلفتين ومتنافرتين أو أكثر، مما يترك عواقبه الوخيمة على المجال الحضري عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا ومذهبيا ...

obeikandl.com